منتقى من تاريخ دمشق

وأثره على الأمة

ج ١ + ج٢

انتقاء

د. عبد الله بن علي الميموني

تنبيه:

وقع في النسخة الأولى أخطاء طباعيّة يسيرة تم استدراكها في هذه النسخة مع زيادات يسيرة جداً

يبدأ الجزء الثاني من ص٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على خاتَم المرسلين نبيّنا محمد صلَّى الله عليه وسَلّم وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين أمّا بعد

فقد كنتُ بعد سقوط نظام الأسد البائد وزوال ذلك الفاسد خطرَ ببالي أنْ أكتب عن **(سوريا في عيون علماءها ومفكريها قبل قرنٍ ونيف)**. لأحيي دَفين طُموحاتهم وأعيدَ رفاتَ أمانيهم في نهضة سوريا وعموم بلاد الشّام وأنشر بعضاً من أفكارهم و آراءهم الحميدة ومقترحاتهم السديدة حول ذلك ومعه بعض آراءهم في سُبل نهضة الأمة عموماً، مشيداً بذكر ما عاشوا دهراً من أعمارهم يؤمّلونه من رِفْعة سوريا وجميع بلاد الشّام وتقدّمها لعلّ خيالاً يُطيف بأرواحهم الزّاكية يُؤذِنهم بانبلاجِ فجرٍ جديدٍ يحمل أملاً ويهدي إلى ذكراهم نفحاتٍ تخبرهم أنّ غرسهم قد أثمرَ في وِجدان أجيالٍ بعدهم وسوف يُورِقُ ويُزهر ، وأنّ نتاج تلك الأعمال والأفكار والوصايا لم تضِع سدى عند الله – إن شاء الله – ولا عند النابهين من أبناء أمّتهم فلقد اجتاحني شعور عامّ بالفرح وبتجدُّد الأملِ فاضت له دموعي وأثّر فيّ فجعلتُ أستذكر في مخيلتي بعضاً ما مرّ بي من آراءهم السّديدة وآمالهم الحميدة مما كان قد توارى وطواه النسيان وأبداه الحبّ والوجدان عند أول قبسة نورٍ تجدّد بها الأمل.

ورجوتُ أنْ يفتح ذلك الباب لمن ينفض الغبار عن لطائف من حكمتهم ورائق أشعارهم وبديع خيالاتهم وجميل أمنياتهم فيجمعها في كتابٍ ليساهم ذلك في ظهور جيل متعلّم متنوّر متمسك بعقيدته معتدل في طرحه وفكره.

ولتكون تلك الأفكارُ مما يُضاف لغيرها من إِرث ثقافي يكونُ موضع مفخرةٍ أُخرى للعربِ وللمسلمين وليتبين للمطالِعين روائعُ من نصائحِهم وخبراتهم وبديعِ نظرهم فيما يتعلّق بمستقبل الشام والأمّة.

وليشاهد المطالع كيف كانت آمالهم عالية في الرّقي والبناء والتقدّم والازدهار مع المحافظة على ثوابت أمتهم، هذا مع الإشارة إلى بعض من كان فيها من علماء ومفكّرين وسفراء وباحثين وأدباء وغيرهم.

وليُستحضَرَ بعضاً مما دوّنوه عن تاريخ وأحوال سوريا والشام عامة وما كتبوه عن آمالهم في التحرّر من الاستعمار الفرنسي وغيره وما سطّروه من رؤيتهم لما قد تلا ذلك من إصلاحات، وإخفاقات، وحكومات وانقلابات.

وما يلحق بذلك من ذكر بعض ذكرياتهم حول الشأن العامّ للأمّة كل ذلك على ضَرْبٍ[1] من الإيجاز.

ومن أمثلة ذلك ما كتبه أو قاله لتلاميذه علّامة الشام طاهر الجزائري وما كتبه غيره من طبقته ومن تلاميذه المؤثّرين من أمثال محمد كرد علي وغيره وعبد الرازق البيطار، وما كتبه أمثال الشيخ: جمال الدين القاسمي والزركلي وغيرهم وبعض أصدقاءهم

---

(١)ضرْبٍ أي نوعٍ.

ومجاوريهم في الشـام في -لبنان - من أمثال أميرِ البيان شكيب أرسلان ومحمد رشيد رضا وغيرهم ممن حملوا همّ بلاد الشام ولبنان عموماً والأمّة ثمّ من تلاهم من أمثال الشيخ علي الطنطاوي وطبقته فإنّ هؤلاء لو بُعثوا لسرّهم خلاص بلدهم وأمتهم من النّظام الأسدي البعثي الجائر.

ولو قُدّر لهم أنْ ينصحوا لأمّتهم وبلدهم لنصحوهم بما كانوا يردّدونه من الأخذ بالأسباب والجمع بين علوم الدّين والدّنيا وحسن الإفادة من الأمم الأخرى والإصلاح المتدرجّ لمجتمعاتهم بلا عنفٍ، والتعاون والتكاتف، وجمع الكلمة والجدّ في التعليم لمحاولة الّلحاق بركب الأمم المتحضرة مادياً لينهضوا ببلادهم، وليكونوا أقدر على مواجهة الأعداء وأقدر على إفشال مخططات الصّهيونية العالمية وغيرها، ولكنني رأيت أن ذلك قد يطولُ وأنّ كثيراً من المثقّفين والعامّة والناشئة من أهل الشام ومن سائر البلاد العربية والإسلامية أحوج الآن إلى ملخّصٍ موجز عن تاريخ دمشق أمّ المدن الشامية وعما مرّت به من نهضات وكبوات عبر العصور وعن بعض ما جرى لأهلها من نكبات وما في كلّ ذلك من العبر.

فعدلتُ في هذا الوقت إلى كتابة خلاصة أو منتقى عن تاريخ الشام ودمشق خاصة مع ربط ذلك بتسلسل الأحداث حتى الوصول إلى تاريخ الحروب الصليبية وغيرها مع التنبيه على بعض الأحداث العظمى المرتبطة بتاريخ الشأم ثمّ بقصة ارتباط دولة السلطان العادل نور الدّين زَنْكِي ثمّ دولة صلاح الدّين الأيّوبي بذلك، وما تخلّل ذلك في دولة نور الدين زَنْكِي من تحرير مصر من سلطة العبيدين الفاطميين الباطنيين مروراً بتحرير بيت المقدِس وغيره من الصّليبيين ، ليكونَ المطالِعُ لهذه الخُلاصة قد فهم

تسلسل الأحداث بشكل عامّ وأدرك الحكمة في هذا التسلسل التاريخي العجيب. وكيف كان أثره كبيراً على حماية الأمة وعلى صيانة بيضتها.

وليُدرك الناظر فضيلة هذا القطر العربي الشقيق وأثره المحمود على الأمّة في مختلَف أدوارها ويُبصِر عُمْق ارتباطِه بما حوله من الأقطار العربية بحيث تسرّها أفراحُه وتحزنها نكباته.

وفي التاريخ عِبَر كثيرة تمهِّدُ الطريق للفهم الصّحيح والعمل النافع وتردّ بمضامينها ووقائعها على المتعصّبين ممن يسارعون في تشتيت جهود الأمة في البناء إلى توسيع الخِلاف والتعصّب والتحزّب على حساب البناء واجتماع الكلمة وتحقيق الألفة أو الدفع نحو نشر بذور التطرف والغلوّ ، فالسّنن الكونية في القوة والنُّشوء والضّعف والاضمحلال تتشابه في أسبابها وفي غير ذلك وإنْ اختلفت في كيفيّاتها وصفاتها الذاتية وفي أنواعها ودوافعها ومسبباتها ولكلّ عصرٍ صفاتها وأحواله التي تُراعَى وتُفهَم على حقيقتها بعيداً عن نوازع الحزبيات والأهواء وتأثير الشّعارات الزائفة.

والتاريخ مرآةٌ يرى فيها العقلاء أعظم العِبْرة ويستنبطون منها أنواع الحِكمة، ولم يزل العلماء والحكماء يوصون بقراءة سِيَر العُظماء والحُكماء ويحضُّون على تدبّر التواريخ والاعتبار بما فيها.

وتاريخ الأمّة في مشرقها ومغربها يحمل في طيّاته كثيراً من العِبَر والتجارب.

وأمّا سيرة نبينا المرسل بالرحمة صلَّى الله عليه وسَلّم فهي فوق ذلك لما فيها مع ذلك من القدوة والأسوة الحسنة والحكمة البالغة والرحمة والإحسان والعدل والوفاء فالوصية بها أعظم والنّفع بها أكبر.

وهذه الخلاصة أو النّبذة المختصرة منقولة من التواريخ الموثوقة العامة والخاصة بالشام كتاريخ دمشق لابن القلانسي وتاريخ ابن الأثير والنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية للقاضي ابن شدّاد والروضتين للحافظ أبي شامة وتاريخ الإسلام والعبر كلاهما للذهبي، وغير ذلك وغالب الاعتماد على تاريخ ابن الأثير وتاريخ الذهبي.

ولتواريخ الأحداث الكبرى عند المسلمين خصوصية ليست لأمّة من الأمم في العصور الماضية فهو مبنيّ في أصله على التثبّت بالرواية عمن رأى تلك الأحداث أو عاصرها ووصل إليه جليّة خبرها أو سمع ذلك من ثقات قد عاصروا أو رووه بأسانيد يقبل مثلها في التاريخ والأخبار.

وبعد انتشار كتابة التواريخ وكتابة تراجم الرجال وأحوالهم وكتب تواريخ البلدان أضحى الناظر المتأمّل يرى أنّ كثيرا من الأحداث الكبرى في تلكم التواريخ يتوارد نقلها من جهات مختلفة فيعتضد الخبرُ بالخبرِ.

وهذا أمر يطول شرحه على وجهه لكنني ألمحتُ إليه هنا ليطمئنَّ الناظر في مصادر هذه الخُلاصة وأنها عن ثقات المؤرّخين وليست كأساطير الإخباريين وأسمار النقلة المجهولين.

وقد رأيت أن أجعل هذه الخلاصة في أجزاء مختصرة لتكون أيسر للمطالِع.

الجزء الأول:

لقد كان اسـمُ الشّـام يتناول سـوريّة اليوم وأكثر فلسـطين وبعض الأردنّ وغير ذلك. وكان من أشـهر مدن الشـام دمشـق وحمص وحماة وغيرها وأمّا في اصـطلاح كثير من الجغرافيين العرب قديماً فقد كانت حدود الشام أكبر من ذلك.

ولم تزل القبائل العربية تقطن مدن الشـام وكان بعضـها قد انتقل إلى النصرـانية، ومن أشهر القبائل العربية التي سكنت الشام قبيلة غسّان التي حكمت عدداً من مدُن الشام مدة من الزمان وقبائل تنوخ و تغلب ولخم وقبائل أخرى من كلب وغيرها.

وقد مدحها الشعراء قديماً ووصفوا طيب مدنها ومغانيها.

وقد ذكر ياقوت الحموي وغيره قول الشاعر [٢] :

بلاد بارك الرّحمن فيها، ... فقدّسها على علم وخُبْرِ

بها غُرر القبائل من معدٍّ ... وقحطان ومن سَرَوات فِهْرِ

ومما قيل في مدح الشـام: (هواؤها طيّب وماؤها عذب وأهلها أحسـن الناس خَلْقا وخُلُقا وزيّا وريّا [٣])اهـ.

---

(٢)معجم البلدان: ٣/ ٣١٤.

(٣)آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني: صـ ٢٠٥.

لمحة عن فضائل الشام

نزلت على نبينا صلّى الله عليهِ وسلّم في حياته آياتٌ فيها ذكر لبعض فضائل الشام وفيها وصفها بالبركة -يعني كثرة الخير-:

كما في قوله تعالى: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا} [الأعراف: ١٣٧]. يعني أرض الشام وهي التي أورثها الله لبني إسرائيل. وقد فسرها الحسن [٤] وقتادة [٥] وغيرهما بأرض الشام فالمقصود مشارِقَ الشامِ ومغاربها.

وقال تعالى: {وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ٧١]. فقد نَجَّى الله إبراهيمَ ولوطًا مِن نُمْرودَ وقومِه في أرضِ العراقِ {إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ} وهي الشامِ كما قال المفسرون.

وقد روى الطبريّ وغيرُه عن أبيّ بن كعبٍ -رضي الله عنه- أنَّه قال في قوله تعالى: ({وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ٧١]. قال: الشام [٦]).

وقبل بعثته صلّى الله عليهِ وسلّم ثم في حياته كانت قوافلُ قبائل العرب تجيء وتذهب للبيع والشراء والتزوّد من الشام في رحلة الشّتاء والصّيف وغيرها.

---

(٤)تفسير عبد الرزاق ١/ ٢٣٥ وتفسير الطبري: ١٠/ ٤٠٥ وتفسير ابن أبي حاتم: ٥/ ١٥٠١ (٨٨٩٥).

(٥)تفسير عبد الرزاق ١/ ٢٣٤ وتفسير الطبري: ١٠/ ٤٠٥ وتفسير ابن أبي حاتم: ٥/ ١٥٠١ (٨٨٩٤).

(٦)تفسير الطبري: ١٦/ ٣١١ وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٢٣ إلى ابن أبي حاتم.

تاريخ الشام في عهد المسلمين

بعد هجرته صلّى الله عليهِ وسلّم إلى المدينة بسنوات قليلة أرسل جيوشاً إلى أطراف الشّام وكان أكبرها جيش غزوة تبوك الذي قاده بنفسه في سنة تسع من الهجرة، وفي تلك الغزوة كان الصّلح مع بعض القرى في أطراف الجزيرة ففيها كان الصّلح مع صاحب دُومة الجندل وهي قَرْيَةٌ تتبع لمدينة الجْوْفِ والجوف مدينة معروفة على أطرافِ الجزيرة -البلاد السّعودية من جهة الشّام -. وأقام بتبوك عشرين ليلةً ثمّ رجعَ ولم يلقَ كيداً. وتبوك أيضاً على أطراف جزيرة العرب من جهة الشام.

وفي سنة إِحْدَى عَشْرَةَ مِنْ مُهَاجَرِهِ، أمرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم النَّاسَ بِالتَّهَيُّؤِ لِغَزْوِ الرُّومِ في الشام وعقد لأُسَامَةَ بن زيد لِوَاءً بِيَدِهِ الشريفة وتوفي صلّى الله عليهِ وسلّم قبل خروج جيش أسامة فلما تولي أبو بكر بعثه فخرج بالجيش وقاتل وَشَنَّ الْغَارَةَ ثمّ رجع للمدينة غانماً ثم أرسل أبو بكر رضي الله عنه الجيوش إلى الشام في سنة (١٢ هـ)وما بعدها وكان من قادة الجيش أمين الأمة أبو عبيدة بن الجرّاح ففتحوا الفتوح ثم أمدّهم بخالد بن الوليد و معه جيش كان معه في العراق وبعد وفات الصديق سنة (١٣ هـ) أكمل عمر الفاروق رضي الله عنه تلك الفتوح وأتمّها.

وفي سنة أربع عشرة من الهجرة فُتحت دِمَشْق فتح بعضها عنوة وبعضها صلحاً وأجراها عمر صلحاً كلها مع كون بعضها قد فتح عنوة، فدمشق عُمريّة نسبة إلى عهد الفاروق عمر بن الخطاب ثمّ هي أموية فقد شادها بنو أمية وصارت عاصمة الخلافة

قرابة قرنٍ ثم صارت عباسية بعد سنة (١٣٢هـــ) وانتقلت في خلال ذلك من دولة إلى دولة وبقيت منارة من منارات الإسلام والعروبة.

وفي سنة (١٤هـ) فتحت بعلبكّ وحمصُ صلحاً، وهرَبَ هِرَقْلُ عظيمُ الرُّوْم من أنطاكية ثمّ في سنة خمس عشرة كانتْ وقعة اليرموك المشهورة قيل كان المسلمون: ثلاثون ألفاً والرُّوْم أكثرُ من مائة ألف وكانت هذه المعركة من أعظم الفتوح ثمّ في سنة ستّ عشرة فُتحت حلب و أنطاكية صُلْحاً.

وفي سنة ستّ عشرة جاء عمر ﷺ من المدينة ليتسلّم بيت المقدِس صُلْحاً وإحساناً فأخذها بالأمان ولم تهرق فيها الدّماء وكان ذلك من دلائل حكمة الصحابة والتابعين وإحسانهم ومن أعظم صور رقي أخلاق المسلمين في عصور كان الظلم والعسف وانتهاك الحرمات فيها شائعاً قبل وجود القوانين الحديثة ب بقرابة ثلاثة عشر قرناً.

و في سبع عشرة خرج عمر –رضي الله عنه –إلى موضع يُقال له: سَرْغ في الشام ونزل خارجَ دِمَشْق ووقع الطّاعون –والطاعون مرض شديد العدوى كان يهلك بسببه خلق كثير– فاستشار عمر من معه من الصحابة فاختلفوا فمنهم من أشار عليه بالرجوع لئلا يقدمَ بنفسه وبالناس على هلكةٍ ومنهم من أشار بالتوكل على الله ودخول دمشق الخ فاختار عمر رأي من أشار بالرجوع و عزم على الرجع إلى المدينة ، وأصاب السنّة قبل أن يبلغه الحديث الوارد في هذه المعضِلة (٧) . والقصة عجيبة وهي مفصّلة في الصحيحين وسائر كتب السنة تركتها اختصاراً.

(٧) في الصحيحين: «فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ – وَكَانَ مُتَغَيِّبًا فِي بَعْضِ حَاجَتِهِ – فَقَالَ: إِنَّ عِنْدِي مِنْ هَذَا عِلْمًا؛ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا

وفي سنة ثمان عشرة توفي أبو عبيدة بن الجراح من العشرة المبشرين بالجنة ومعاذ بن جبل وغيرهما من الصحابة والتابعين بسبب الطاعون.

واستوطن الشّام طائفة من الصحابة ومن كبار علماء التابعين وغيرهم ثم كانت دار الخلافة ومجمع رؤوس العرب، واستوطن دمشق بعد ذلك أممٌ لا يحصون من علماء المسلمين وقادتهم ورؤسائهم وأصحاب الفضل منهم وغيرهم.

وكان يزيد بن أبي سفيان أميراً على دمشق ولاه أبو بكر رضي الله عنه وبعد وفاته ولّى عمر رضي الله عنه أخاه معاوية بن أبي سفيان فبقي أميراً على دمشق عشرين عاماً ثم لمّا تولى الخلافة سنة ٤١هـ. انتقلت الخلافة إلى دمشق وكان لدمشق مكانة عظيمة عند المسلمين وامتدت تلك المكانة بعد ذلك وترسخت حين غدت عاصمة الخلافة واستمرت الخلافة فيها إلى سقوط دولة بني أمية سنة (١٣٢هـ.) ولكن تخلل ذلك سنوات من خلافة عبد الله بن الزبير رضي الله عنه من سنة (٦٤هـ) حتى استشهد سنة (٧٣هـ) فاستوسَقَ الأمرُ لعبد الملك بن مروان الخليفة فمجموع مدة دولة بني أميّة مع اقتطاع ذلك قرابة ثلاثة وثمانين عاماً وبقيت آثار من عمارة خلفاء بني أمية لمدن الشام في دمشق وحلب وحمص وغيرها أزمنة متطاولة. وقد بقيت دمشق ومعها مُدُن الشّام مناراتٍ علم وخير ورخاءٍ وأمنٍ مدداً طويلة من الزمان في عهد بني أمية ثمّ في عهود طويلة في كثير من أيام الدولة العباسية وعهد بعض الدول المستقلة عنها.

وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ. قَالَ: فَحَمِدَ اللهَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ثُمَّ انْصَرَفَ». واللفظ للإمام مسلم «صحيح مسلم» :(٧/ ٣٠ ح:٢٢١٩).

وانتقلت عاصمة الخلافة بعد سقوط دولة بني أمية إلى الكوفة في العراق في خلافة علي رضي الله عنه ثم عادت لدمشق كما سبق ثم انتقلت بعد سقوط الدولة الأموية إلى الأنبار في العراق ثمّ استقرت الخلافة ببغداد في عهد أبي جعفر المنصور من عام (١٤٥هـ) وأصبحت بغداد حاضرة العالم وعاصمة الدّنيا قروناً متطاولة وإن تخلل ذلك فتن عظيمة وتقلبات كبيرة.

ثم حدثت بعد وفاة هارون الرشيد أهوال وفتن كثيرة ثم استقام الأمر للمأمون ابن هارون الرشيد واستقامت أمور بغداد ودمشق مدة طويلة مع بعض الفتن والقلاقل حتى كانت سنة (٢٦٤هـ). فتملّك أحمد بن طولون وأصله تركيٌّ مصرَ والشّام واستقل عن الخلافة العباسية.

ثم في سنة تِسْعٍ وَثَمَانِينَ وَمِائَتَيْنِ بدأت المصيبة العظمى بانتشار الْقَرَامِطَةِ فِي سَوَادِ الْكُوفَةِ في العراق وغيره ثم هزموا أمير جيش دمشق ثمّ حاصروا دمشق فصالحهم أهل دمشق على مالٍ دفعوه، وكان ذلك بدأ انتشار الباطنية فيما حول دمشق في أهل الغوطة وفي غيرها، وقد كانت سنة (٢٩٠ – ٢٩١) بلاءً عظيماً على الشّام بسبب القرامطة وقد تملّكوا حمص، وساروا إلى حماة والمعرة، ثمّ بعلبك، فقتلوا وسبوا خلقاً ،وازداد ضعف الدولة العباسيّة وجرى على أهل العراق والشّام خطوبٌ صعبة مذكورة في التواريخ.

ثم كانت الروم في سنة ٣١٤ هـ وما بعدها ينهبون أطراف الشام ثمّ في سنة اثنتين وعشرين وثلاث مئة بدأ ظهور دولة بني بويه التي حكمت المشرق والعراق وكانوا من الرافضة وكان فيهم مع ذلك جور وظلمٌ عظيم، وفي خلال ذلك وبعده كانت دولة بني حَمدان في الموصل ثمّ في حلب وغيرها وفي بعض مدن الشامِ ومن أشهر أمراءها ناصر

الدّولة ابن حمدان و أخيه سيف الدولة صاحب المتنبي و كان في بني حمدان تشيّعٌ ولكن كان في سيف الدولة خصال حميدة من جهاد وبطولات ومواقف محمودة مع الرّوم ولذلك وغيره فقد قال الذهبي : (كان بطلاً شجاعاً كثير الجهاد، جيد الرأي، عارفاً بالأدب والشعر جواداً ممدّحاً)اهـ. واتهمه بعض المؤرخين بأنه كان فيه أيضاً عسف ومصادرة للأموال لكثرة إنفاقه.

وفي خمس وثلاثين وثلاثمئة ملك سيف الدَّولة دمشق ثمّ حورب فخرج منها.

وقد وقعت الطوامّ على الشام في سنة ثمان وخمسين وثلاثمئة وما بعدها ففيها أغار الروم وقتلوا وسبوا ووصلوا إلى حمص، وعظم المصاب، وفيها أخذ بنو عبيد الفاطميين الباطنية ديار مصر وكانوا قد أسسوا دولة في المغرب العربي ثم استولوا في هذه السنة على مصر فكان في العراق الرافضة البويهيون وكان في مصر ثم في الشام العبيديون الباطنية وهم شرٌّ من الرافضة، وفي سنة ستين وثلاثمائة دخل القرامطة دمشق وقتلوا أهلها وسفكوا الدّماء.

وملك الفاطميون الشام من سنة: (٣٦٤ – ٣٩٤هـ) ثم كانت الدولة السلجوقية التركمانية أصلهم من أعمال بخارى وهي دولة سنّية جاءت من المشرق سنة ٤٤٧هـ فحكمت العراق وغيره.

ومن الأحداث أنه في سنة (٤٧٩) توفي منصور بن دبيس الأسدي بهاء الدّولة ، صاحب الحلّة والنيّل ،وكان من أكبر أمراء العرب في عصره ، كان فارساً شجاعاً مذكوراً. وأديباً شاعراً. ذا رأي وسماحة.

قال الذهبي: (كان عادلاً حسن السّيرة، مات في الكهولة سامحه الله، وولي بعده ولده سيف الدّولة صدقة بن منصور [٨]).

ومن أخبار ابنه سيف الدولة صدقة هذا أنه في حوادث سنة إحدى وخمسمائة كان قد صار ملك العرب في زمانه، وبنى الحلة ومصّرها، وقبل ذلك كان صاحب عمود وبيوت شعر، فعظم شأنه، وارتفع قدره، وصار ملجأً لمن يستجير به، وكان معينًا للسلطان السلجوقي في العراق على أخيه في حروبه، وناصرًا له، فزاد السلطان في إقطاعه مدينة واسط، وأذن له في أخذ البصرة لكن أوغروا صدر السلطان عليه فكانت بينهما حروب انتهت بمقتل صدقة هذا. قال الذهبي: (وكان صدقة كثير المحاسن في الجملة، محبًّا إلى الرعيّة).

وقد ملكت الشام الدولة الأتابكية دولة آل زَنْكي الآتية في حدود سنة (٤٩٠هـ).

و قد عانت الشام وسواحلها من الحروب الصليبية من سنة ٤٩٠ - ٥٠٠ وما بعدها ففي سنة تِسْعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ كان أول دخول الصليبيون إِلَى أطراف بِلَادِ الشَّامِ بعد حوادث وحروب ثم في سنة اثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ استولوا على بيت المقدس وبالغوا في القتل فقتلوا مَا يَزِيدُ عَلَى سَبْعِينَ أَلْفًا في المسجد الأقصى وما حوله مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعُلَمَائِهِمْ، وَعُبَّادِهِمْ ارتكبوا بشهادة بعض مؤرخيهم أنواع التعصب الأعمى، وكان دخولهم بيت المقدس وقتَ انشغال ملوك وسلاطين المسلمين واقتتالهم مع بعضهم، ولما تَمَكَّنَ الْفِرِنْجُ مِنِ بلاد الشام والمقدس خاصة حزن المسلمون ومما قاله الشعراء في ذلك الوقت :

---

[٨] تاريخ الإسلام: ١٠/ ٤٥٠.

وَكَيْفَ تَنَامُ الْعَيْنُ مِلْءَ جُفُونِهَا ،،، عَلَى هَفَوَاتٍ أَيْقَظَتْ كُلَّ نَائِمِ

وَإِخْوَانُكُمْ بِالشَّامِ يُضْحِي مَقِيلُهُمْ ،،، ظُهُورَ الْمَذَاكِي، أَوْ بُطُونَ الْقَشَاعِمِ

تَسُومُهُمُ الرُّومُ الْهَوَانَ، وَأَنْتُمُ ،،، تَجُرُّونَ ذَيْلَ الْخَفْضِ فِعْلَ الْمُسَالِمِ

وبقيت مدنٌ مهمة بسواحل الشام عصية على الصليبيين سنوات كطرابلس وبيروت واللاذقية ومكثت تقاوم إلى حدود سنة ٥٠٠ وقد بقيت بيروت إلى سنة (٥٠٣هـ)

قال البحاثة الأستاذ محمد كرد علي : (وقد أنجدت الدول المجاورة الشام نجدات مهمة على بعد المدى وقلة المواصلات. وأبلى جند التركمان والأكراد مع عرب الشام والموصل البلاء الحسن في هذه السبيل، ولكن كانت القوى الصليبية عظيمة جداً لا قبل لهم بدفعها، فكان موقف المسلمين على الأغلب موقف المدافع لا المهاجم [٩])اهـ.

نعم كان الصليبيون يتوافدون على سواحل الشام كالسيل الجارف هذا مع ضعف المسلمين لكثرة الخلاف بين السلاطين المتغلبين على البلدان ولانتشار الباطنية ولفشو الرفض ولكن كانت هناك حروب وكر وفرّ ولو كانت الشام كلها وسواحلها تحت إمرة سلطان سنيّ قوي لما تمكن الصليبيون من ذلك وكذلك لوكان في العراق خلافة قوية لما تمكنوا ولكن هكذا سنة الله في الأمم تضعف بالاختلاف والتفرق . وقد كان سيف الدولة الحمداني وغيره يقاتلونهم ويجالدونهم.

---

(٩)خطط الشام: ١/ ٢٨٠

ثم كان بعد ذلك أمراء في الشـام يقاتلون الصـليبيين وكان منهم أمير دمشـق طغتكين الآتي ذكره فاشـتهر بجهاد الصـليبين والدفاع عن دمشـق وما حولها ولكنه اضـطر بعد سنوات من الحروب التي كانت سجالا بينهم إلى مهادنة ملك بيت المقدس الإفرنجي.

وكذلك قاتل المصـريون الفرنجة حيناً في أطراف الشـام وممن قاتلهم ابن عمار ملك طرابلس وغيره. ثم كان ممن تولى الحمل الأكبر من جهاد الصـليبيين عماد الدين زنكي ثم ابنه الإمام العادل نور الدين زنكي الآتي ذكره ثم صلاح الدين يوسف الأيوبي كما سيرد.

وفي سـنة عشرـين وخمسـمائة كثرت الإسـماعيلية الباطنية بالشـام، وكان الناس والكبار يخافونهم.

وفيها توفي طغتكين أمير دمشـق البطل الذي كان يقاتل الصـليبيين مدة طويلة وهو طغتكين أبو منصـور أتابك قال ابن الأثير: (كان عاقلًا خبيرًا، كثير الغزوات والجهاد للفرنج، حسـن السـيرة في رعيته، مؤثرًا للعدل). وقال غيره: حزن عليه أهل دمشـق. وكان حاكمًا على الشام خمساً وثلاثين سنة.

وفي سـنة اثنتين وعشرـين وخمس مئة تملّك حلب عماد الدين زنكي الذي ولي ديار الْموصل والبلاد الشامية

وقد كان لظهور دولة عماد الدين زنكي هذا أثر كبير في جهاد الصلبيين وفي حماية الشام وغيرها ووالد زنكي هو آق سنقر كان قد وِلِيَ حلبَ وَغَيرهَا من بِلَاد الشَّام.

وفي سـنة ثلاث وعشرـين وخمس مئة أخذ زنكي حماة من بوري بن طغتكين وفي هذه السـنة أراح الله من الباطنية الإسـماعيليّة بدمشـق بعدما عاثوا فسـاداً فقتلهم بوري بن

طغتكين فسلّم بهرام الباطني قلعة بانياس للفرنج، وجاءت الفرنج فنازلت دمشق فقاتلهم عسكر دمشق مع العرب والتركمان وبيّتوا الفرنج فهزموهم.

وفي سنة (٥٢٦) استشهد بوري بن طغتكين أمير دمشق بعد جرح كان به من الباطنيّة وأوصى بالملك بعده لولده شمس الملوك إسماعيل وفي سنة ٥٢٧ سار إسماعيل هذا على غفلة من الفرنج إلى حصن بانياس وفتحه.

وفي سنة ثمان عشرين وخمسمائة فسخت الفرنج الهدنة وأقبلت ، فجمع شمس الملوك أمير دمشق المذكور جيشه، واستدعى تركمان النواحي، وبرز في عسكره نحو حوران، فالتقوا، وكانت الفرنج في جمعٍ كثيف، فأقامت المناوشة بين الفريقين أيامًا، ثم غافلهم شمس الملوك، ونهض بشطر الجيش، وقصد عكا والناصرة، فأغار وغنم، فانزعجت الفرنج، وردُّوا ذليلين، وطلبوا تجديد الهدنة.

وفي سنة **تسع وعشرين وخمس مئة** أخذ زنكي المعرّة من الفرنج، وقد بقيت في أيديهم سبعاً وثلاثين سنة.

وفي هذه السنة سنة تسع وعشرين وخمس مئة توفّي شمس الملوك إسماعيل بن بوري بن طغتكين . المذكور سابقاً وكان شجاعا قاتل الفرنج ولكنه كان ظلوماً عسوفاً فكرهته الرعية ولم يكن كوالده وجده.

وفي أربع وثلاثين وخمس مئة حاصر زنكي أمير الموصل مدينة دمشق، وقاتل جندها وكاد أن يأخذها ثم توفي أميرها وهو محاصر لها فلما ألح عليهم زنكي بالقتال راسل قائد يقال له: أنر وهو الذي تولى الإمارة فيها راسل الفرنج يستنجد بهم ؟ وخوفهم من

زنكي إن تملك دمشـــق، فتجمعت الفرنج، وعلم زنكي، فســـار إلى حوران لملتقاهم فهابوه ولم يجيئوا، فعاد إلى حصار دمشق.

ثم جاءت الفرنج واجتمعوا بــــ: أنر، فسار في عسكر دمشق إلى بانياس، وهي لزنكي، فأخذها وســـلمها إلى الفرنج ؟! فغضـــب زنكي، وعاد إلى دمشـــق، فعاث بحوران وأفسد، وجاء إلى دمشق فخرجوا واقتتلوا، وقتل جماعة، ثم رحل عنها إلى الموصل

وفي هذه السنوات إلى سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة افتتح زنكي فتوحاتٍ عظيمة، وهابته الملوك، واتسعت ممالكه.

وفي سـنة تسـعٍ وثلاثين وخمسـمائة نهض عسـكر بعلبك، فأغاروا على الفرنج وهزموهم ورجعوا إلى بعلبك ، وكذلك فعل عسكر حلب.

في سنة إحدى وأربعين وخمسمائة

قُتل زنكي وهو يحاصر جعبر، فقام بأمر الموصل ابنه غازي، وقام بحلب ابنه الآخر نور الدين محمود وهو الملك العظيم العادل الآتي ذكره.

وفي سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة سار نور الدين محمود بن زنكي صاحب حلب يومئذ ففتح حصـــن أرتاح، وهيو بقرب حلب، اســـتولى عليها الفرنج، فأخذه عنوة، وأخذ ثلاثة حصون صغار للفرنج، فهابته الفرنج.

وفي سنة ثلاث وأربعين وخمس مئة

جاءت من الفرنج ثلاثة ملوك إلى بيت المقدس وعزموا على قصد الإسلام فخرجوا ونازلت الفرنج دمشق في عدد كثير واستمر القتال أياماً فلما كان في اليوم الخامس، وصل غازي بن أتابك زنكي في عشرين ألف فارس، ووصل أخوه نور الدين محمود إلى حماه رديفًا له، وكان في دمشق البكاء والتضرّع وفرش الرماد أيامًا، وأُخرج مُصحف عثمان إلى وسط الجامع، وضجّ النساء والأطفال مكشّفين الرؤوس، فأغاثهم الله.

قصة قدوم ملك الألمان ورغبته في أخذ دمشق وكيف كانت الحيلة في ردّه.

سار ملك الألمان من بلاده في خلق كثير، عازمًا على قصد الإسلام، واجتمع معه الصليبيون يعني فرنج الشام، وسار إلى دمشق، وبها مجير الدين من أحفاد بُوري، وكان معه (أتابكه) قائد فاضل حكيم واسمه: معين الدين أُنُر فاستنجد بأولاد زنكي فنجدوه وخرج بالناس إلى قتال الفرنج، وقويت الفرنج، وتقهقر المسلمون إلى البلد، ونزل ملك الألمان بالميدان الأخضر، وأيقن الناس بأنه يملك البلد. فاحتال عليهم معين الدين وأرسل يقول للفرنج الغرباء: إن ملك الشرق قد حضر، فإن رحلتم، وإلا سلّمت دمشق إليه، وحينئذ تندمون، وأرسل إلى فرنج الشام يقول لهم: بأي عقل تساعدون هؤلاء الغرباء علينا، وأنتم تعلمون أنهم إن ملكوا أخذوا ما بأيديكم من البلاد الساحلية يعني سواحل الشام؟ وأنا إذا رأيت الضعفَ عن حفظ البلد سلّمته إلى ابن زنكي، وأنتم تعلمون أنه إن ملَك لا يبقى لكم معه مقام بالشام، فأجابوه إلى التخلي عن ملك الألمان، وتنازل لهم عن حصن بانياس، فاجتمعوا بملك الألمان، وخوّفوه من عساكر الشرق وكثرتها، فرحل وعاد إلى بلاده وراء القسطنطينية. وفي هذه

القصـــة عبر منها أثر الحيلة في الدفع عن عورات المســـلمين ومنها أثر اختلاف ملوك النصارى في التخفيف عن جيوش المسلمين في تلك العهود الغابرة.

وفيه هذه الســـنة أمر نور الدين زنكي بإبطال: حيّ على خير العمل، من الأذان بحلب، فعظُم ذلك على الإسماعيلية والرّافضة الذين بها.

وفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة

غزا نور الدين محمود بن زنكي فكسر الفرنج، وقتل صـــاحب أنطاكية، وكانت وقعة عظيمة ثم افتتح نور الدين حصن فامية، وكان على أهل حماة وحمص منه ضرر عظيم.

واحتال حتى أسر (جوسلين) صاحب حصون تل باشر، وعزاز، وعينتاب، ومرعش، وكان قد آذى المســـلمين ونكّل فيهم بالغارات والســـبي وغير ذلك فقال نور الدين لجماعة من التركمان من جاءني بـــ:جوسلين أعطيته مهما طلب، فنزلوا بأرض عينتاب، فأغار عليهم جوسـلين، وأخذ امرأة مليحة فأعجبته، وخلا بها تحت شـجرة، فكمن له التركمان وأخذوه أسـيرًا، وأحضـروه إلى نور الدّين، فأعطى الذي أسره عشرـة آلاف دينار، وكان أسرُه فتحًا عظيمًا، واستولى نور الدّين على أكثر بلاده.

وفيها نازل نور الدين أنطاكية وحاصرها بعد حروب إلى أن ذلّوا وسـلموها بالأمان ثم جاءتها أمداد الفرنج، ثم اقتضت الحال مهادنة من في أنطاكية وموادعتهم.

وأمّا أعمال دمشـــق وقراها كحوران، وغيرها، فعاثت بها الفرنج، وأجلبت الأرض، ونزح الفلاحون عنها، فجاء نور الدين بجيشـــه إلى بعلبك ليوقع بالفرنج، ففتح الله

بنزول غيث عظيم، فعظُم الدعاء لنور الدّين، وأحبّه أهل دمشق وقالوا: هذا ببركته وحُسن سيرته.

ولّما رأى نور الدين تقصير أمير دمشق وقوادها عن الدفاع عنها وضعفهم واختلافهم واستعانتهم بالفرنج أحيانا نزل بدمشق وأرسل إلى أميرها ومن معه: إنني ما قصدتُ بنزولي هنا طلبًا لمحاربتكم، وإنما دعاني كثرة شكاية أهل حوران والعُربان، وقد أخذت أموالهم وأولادهم، ولا ينصرُهم أحدٌ فلا يسعني مع القُدْرة على نُصرتهم القعودُ عنهم، مع علمي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذبّ عنها، والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالإفرنج على محاربتي، وبذلكم لهم أموال الضعفاء من الرعية ظلمًا وتعدّيًا، فكان جوابهم: ليس بيننا وبينك إلا السيف، فكثر تعجّب نور الدين، وأنكر هذا، وعزم على الزّحف إلى البلد، فجاءت أمطارٌ عظيمة منعته من ذلك، ثم تقرر الصلح في أول سنة خمسٍ وأربعين، فإن نور الدين أشفق من سفك الدّماء، فبذلوا له الطّاعة، وخطبوا له بجامع دمشق بعد الخليفة والسلطان، وحلفوا له ورجع إلى حلب وقد أحبه الناس لما رأوا من دينه وعدْله.

وفي سنة ثمان وأربعين وخمس مئة أخذت الفرنج عسقلان بعد قصة عجيبة فيها عبر كثيرة:

فقد كانت منيعة سنين متطاولة على الفرنجة ، وفي كل سنة يقصدونها ويحاصرونها، و كان المصريون يرسلون إليها عن طريق البحر الأسلحة والذخائر والأموال. فلما كان في هذا العام جاء الصليبيون إليها فخرج المسلمون وقاتلوهم وطردوهم، فأيسوا من أخذها، وعزموا على الرحيل عنها، فأتاهم الخبر بأن أهل البلد قد اختلفوا، وذلك

لأنهم لما قهروا الفرنج داخلهم العجب، وادعى كل طائفة أن النصرة على يده، ووقع بينهم خصام على ذلك حتى قُتل بينهم رجل، فعظُمت الفتنة، وتفاقم الشرّ، وتحاربوا، فقُتل بينهم جماعة، وزحفت الفرنج في الحال، فلم يكن على السور من يمنعهم، فملكوا البلد.

وفي سنة تسع وأربعين وخمس مئة حصل الفرج لدمشق وأهلها فقد تسلّم نور الدين دمشق بعد أن حاصرها، فسلّم إليه أهل البلد من ناحية الباب الشرقي، وحصَر صاحبها الملقب بمجير الدّين في القلعة وكانت الفرنج قد ملكوا عسقلان، وطمعوا في دمشق، وكان لهم على أهلها كل سنة ضريبةٌ، فتجيء رسلهم ويأخذون من الناس، فاحتال نور الدّين وراسل مالكها مجير الدين واستماله، وواصله بالهدايا، وأظهر له المودة حتى ركن إليه، واحتال نور الدين بحيلة فكان يقول لصاحب دمشق هذا إن فلانًا قد بعث إليّ وكاتبني في تسلُّم دمشق فاحذره، فكان يقبض على ذلك الرّجل من قواده، أو يقطع خبره، إلى أن قبض على نائبه عطاء وقتله، وكان نور الدين لا يتمكن مع وجود عطاء هذا من أخذِ دمشق .

وكتب المقتفي – الخليفة العباسي في بغداد – عهدًا لنور الدّين محمود بن زَنكي، وولّاه مصر، وأمره بالمسير إليها، ولكنه كان مشغولًا بحرب الفرنج وبالجهاد. ولُقِّب نور الدين بالملك العادل.

وكان الخليفة المقتفي الخليفة العباسي قد قوي سلطانه في هذه السنوات واستوزر الوزير الصالح الفقيه عون الدين ابن هبيرة الحنبلي شيخ الإمام ابن الجوزي وغيره فانتظمت

أمور العراق بعد بلاء استمرّ عشرات السنين، بل قروناً وإنْ تفاوت في بعض الأحوال وتحسّن الحالُ في حُكْم بعض الخلفاء.

وفي سنة (٥٥٤ هـ) صالح نور الدّين ملكَ الرّوم القادمَ من القسطنطينية وأجيب ملك الروم إلى ما التمسه من إطلاق مقدَّمي الفرنج، فأطلقهم نور الدّين صلحاً.

فائدة مهمّة:

لقد استمر انقسام ملوك النصارى واختلافهم في المشرق العربي عقودا طويلة وكان ذلك من أعظم أسباب التخفيف عن المسلمين فقد كان بين ملك الروم في مدينة القسطنطينية (إسطنبول فيما بعد) وبين بعض ملوك المسلمين معاهدات وصلح فلذلك لم يقم بإعانة الفرنج الصليبين على المسلمين بل استمر على عهده بل قيل إنه ساعد في الباطن المسلمين كما سيأتي في قصة ملك الروم مع ملك ألمانيا وقد استمرّ هذا مدَّة من الزّمان في عهد نور الدّين وغيره ثمّ بعد ذلك في عهد السّلطان صلاح الدّين الأيّوبي فقد كان صُلح صاحب القسطنطينية مع صلاح الدّين فيما بعد من أسباب الفرج والتخفيف عن المسلمين حينما اشتدّ الضغط على جيوش صلاح الدين من الفرنجة حتى بعد تحرير بيت المقدس كما سيأتي سرد قصة ذلك. بإذن الله. وفي هذا عبر كثيرة.

وسبحان من لا يزول ملكه.

نهاية الجزء الأول.

منتقى من تاريخ دمشق

وأثره على الأمّة

الجزء الثاني

انتقاء

د. عبد الله بن علي الميموني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله معزّ من يشاء بقدرته ومذلّ من يشاء بقهره لا إله غيره والصلاة والسلام على صفوته من خلقه نبيّنا محمد صلّى الله عليهِ وسلّم وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدّين أمّا بعد

فالتاريخ سلسلة متّصلة ممتدّة لكنها متشعّبة جداً لا تسلُك منهجاً واحداً فيحتاج من يكتب في تاريخ بلدٍ أو أمّة للإشارة لما يتصل بالموضوع وما يؤثّر فيه، ولهذا ذكرتُ طرفاً من الأحداث الجسام والمعارك الكبيرة المتصلة بتاريخ دمشق ومشاهير حكّامها [١٠] مع الإشارة لبعض من عاصرهم في العراق ومصر.

و قد أشرتُ عرضاً إلى بعض القصص المهمّة بإيجازٍ كقصة تحرير السلطان الفاضل ملك المغرب: عبد المؤمن الموحّدي لمدينة (المهديّة) في تونس من الفرنجة بعد حكموها قرابة اثني عشر عاماً، وإنما ذكرتها عَرَضاً لفائدة رأيتها، ولارتباطها بحملة الصليبيين، فغزو الصليبيين كان شاملاً عامّاً فقد شمل الشام وما قاربها وبعض دول المغرب والأندلس، ولكن كان لكلّ قطرٍ ظروفه وأحواله وكان تباعد الأقطار كبيراً وبخاصة في تلك الأزمنة.

---

(١٠)جمع العلامة صلاح الدين الصفدي (ت:٧٦٤هـــ) كتاباً فيمن حكم دمشق اسمه: (تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب). مطبوع. وهي أرجوزة شرحها هو. وله رسالة في أمراء دمشق في الإسلام. طبعت أيضاً.

وتركت التعرّض لذكر أحوال الأندلس لتشعّبها لئلا يطول الكلام فيملّ أو يهجَرَ مراعاة للمقاصد التي ذكرتها في مقدمة الجزء الأول، وإنما ذكرتُ طرفاً موجزاً من أحداث مصر ـ لاتصالها بالشام في ذلك الوقت ولأنّ تحريرها كان على يدي جيوش الملك العادل نور الدّين زنكي سلطان الشام، وبها أقام فاتح القدس صلاح الدين الأيوبي دولته التي شملت فيما بعد مصر والشام واليمن وغيرها.

فيكون الناظر في هذا المنتقى قد ألقى نظرةً على جملة من أحداث ذلك العصر ـ المؤثِّرة لتبدوَ له صفحة بل لمحةٌ من تاريخ ذلك الزّمان على التوالي مع تحرّي الإيجاز إلى الغاية.

ففي تلك التواريخ عبر كثيرة لا تنتهي.

وتلك الأيّام يداولها الله بين عباده لحكمة بالغة، فترفعُ أمّةٌ وتنخفض أخرى وتبرز أسرة مالكةٌ وتبورُ أخرى وتسود طائفة وتسفُل أخرى، وتبرز شخصيات قيادية في كلّ عصرٍ ـ ومصرـ فتكونُ في جانب الحقّ أو تكونُ في معيّة الباطل فيُبتلَى بها الخلقُ نفعاً أو ضرّاً. ولله في خلقه شؤون. والعاقبة للمتقين.

وتمرّ لك الأحداث والمشاهد كأنها شريطٌ ذكرياتٍ يتسارعُ في مخيلةِ عاقلٍ عاش دهراً في الدّنيا وذاق حلوّها ومرّها وتنقّلت به خفضاً ورِفعة ثمّ حضره أجلُه ودنى رحيله فبقي متفكّراً يتذكّر بداياته وأعوامه ونهاياته وينظر في حاله ومآله ويمرّ بعقله وقلبه ابتداءُ أمره وانتهاؤه فيرى كيف انقضى ذلك وتولّى كأنه طيف خيالٌ قد عرض له ثم جفل عنه فكأنه ما عاشه وهو قد عايش كلّ لحظةٍ منه مسرة أو حزناً راحة أو تعباً، ولكنه باد و زال كما تزول الأحلام.

أحلام نومٍ أوْ كظلٍّ زائلٍ،،، إن اللبيب بمثلها لا يخدعُ

فهذا هو الجزء الثاني من هذا المنتقى مضـــموماً مع الجزء الأول، وقد كنتُ ذكرتُ في الجزء الأول دواعي الكتابة فيه وأنها ســتكون بإيجازٍ، وقد جاءت أيضــاً على عجلٍ هذا مع تقسّم الفكر في أمور أخرى من كتابة في علوم التفسير وغير ذلك.

والله المعين وحده.

تتمة أحداث سنة أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ

فيها اســتردَّ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ ســلطان الموحّدين في المغرب: مَدِينَةَ الْمَهْدِيَّةِ من الفرنجة وهي مدينة حصينة في تونس على البحر المتوسط لا تزال معروفة بهذا الاسم. استردّها مِنَ الْفِرِنْجِ بعد أن مكثت في أيديهم اثنتي عشرة سنة، فإنهم في سَنَةَ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ استولوا على مَدِينَةَ الْمَهْدِيَّةِ مِنْ صَاحِبِهَا الْحَسَنِ بْنِ تَمِيمِ بن َادِيسَ الصِّنْهَاجِيِّ.

وقد كانوا في سَنَةَ إِحْدَى وَخَمْسِينَ فعلوا بِالْمُسْلِمِينَ الأفاعيل مِنَ الْقَتْلِ وَالنَّهْبِ في مدينة فِي زَوِيلَةَ الْمَدِينَةِ الْمُجَاوِرَةِ لِلْمَهْدِيَّةِ فهَرَبَ مِنْ أهلها جَمَاعَةٌ وَقَصَدُوا عَبْدَ الْمُؤْمِنِ صَاحِبَ الْمَغْرِبِ، وَهُوَ بِمَرَّاكُشَ، يَسْتَجِيرُونَهُ، فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَيْهِ وَدَخَلُوا عَلَيْهِ أَكْرَمَهُمْ، وَأَخْبَرُوهُ بِمَا جَرَى عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَأَنَّهُ لَيْسَ فِي مُلُوكِ الْإِسْلَامِ مَنْ يُقْصَدُ سِوَاهُ، –وقد كان نور الدين في الشام بعيداً عنهم – فَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ، وَأَطْرَقَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، وَقَالَ: أَبْشِرُوا، لَأَنْصُرَنَّكُمْ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ.

وأمر بِعَمَلِ الرَّوَايَا وَالْقِرَبِ وَالْحِيَاضِ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْعَسَاكِرُ فِي السَّفَرِ، وَكَتَبَ إِلَى جَمِيعِ نُوَّابِهِ فِي الْغَرْبِ، وَكَانَ قَدْ مَلَكَ إِلَى قَرِيبِ تُونُسَ، يَأْمُرُهُمْ بِحِفْظِ جَمِيعِ مَا يَتَحَصَّلُ مِنَ الْغَلَّاتِ، وَأَنْ يُتْرَكَ فِي سُنْبُلِهِ، وَيُخَزَّنَ فِي مَوَاضِعِهِ لئلا يفسد ، وَأَنْ يَحْفِرُوا الْآبَارَ فِي الطُّرُقِ، فَفَعَلُوا جَمِيعَ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ، وَجَمَعُوا الْغَلَّاتِ ثَلَاثَ سِنِينَ وَنَقَلُوهَا إِلَى الْمَنَازِلِ، وَطَيَّنُوا عَلَيْهَا، فَصَارَتْ كَأَنَّهَا تِلَالٌ. فَلَمَّا كَانَ ف هَذِهِ السَّنَةِ سَارَ عَنْ مَرَّاكُشَ. فحصارها

كان في سنة (٥٥٤هـ) واستمر سبعة أشهر ؟ ،وأمّا استردادها فكان في سنة (٥٥٥هـ) .[١١]

وقد توفي عبد المؤمن سلطان المغرب وملك الموحدين: سنة ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ.

سَنَةُ خَمْسٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ

فيها تُوُفِّيَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُقْتَفِي لِأَمْرِ اللَّهِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُسْتَظْهِرِ بِاللَّهِ وَكَانَ مَوْلِدُهُ سَنَةَ تِسْعٍ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَكَانَتْ خِلَافَتُهُ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ سَنَةً وَثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ وَسِتَّةَ عَشَرَ يَوْمًا.

وَكَانَ عَادِلًا حَسَنَ السِّيرَةِ موصوفاً بالحلم والكرم والرَّأْيِ السديد وَالْعَقْلِ، شُجَاعًا مِقْدَامًا. وبه أحيا الله عهود الخلفاء الأقوياء من العباسيين وغيرهم.

قال ابن الأثير: (وَهُوَ أَوَّلُ مَنِ اسْتَبَدَّ بِالْعِرَاقِ وَأَوَّلُ خَلِيفَةٍ تَمَكَّنَ مِنَ الْخِلَافَةِ وَحَكَمَ عَلَى عَسْكَرِهِ وَأَصْحَابِهِ ،مُنْفَرِدًا عَنْ سُلْطَانٍ يَكُونُ حاكماً عليه مِنْ أَوَّلِ أَيَّامِ تسلّط الدَّيْلَمِ على خلفاء بغداد إِلَى الْآنِ إلا أن يكون المعتضد بالله)اهـ. بمعناه. يعني إلى زمان ابن الأثير المتوفى سنة (٦٣٠هـ).

يعني أن الْمُعْتَضِدُ بِاللَّهِ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ الْمُوَفَّقِ بْنِ الْمُتَوَكِّلِ كان أيضاً خليفة مستقلّا وكان يسيطر على أمور الخلافة في العراق وغيرها وكان شجاعاً مقداماً مهيباً فلذلك استثناه لكونه كان قد أعاد هيبة الدولة وأخضع قادة الترّك وغيرهم. وكان أبوه الموفّق ولي العهد وقائد الجيوش قد أعاد قبله هيبة دولة بني العباس لكنه توفي قبل أن يلي

---

(١١)معجم البلدان لياقوت: (٥/ ٢٣١) وتاريخ ابن الأثير: ٩/ ٢٦١.

الخلافة فتولاها ابنه المعتضد هذا وسار سيرة أبيه وقد توفي المعتضد سنة (٢٨٩هـــ). وخلافته مدّتها قرابة عشر سنوات.

سنة سبع وخمسين وخمسمائة

وفيها رجع أكثر الناس بلا حجّ وإنما كمل حج شرذمة منهم ، وَلَمْ يَتِمَّ الْحَجُّ لِأَكْثَرِ النَّاسِ لِصَدِّهِمْ عَنْ دُخُولِ مَكَّةَ وَالطَّوَافِ وَالسَّعْيِ، فَمَنْ دَخَلَ يَوْمَ النَّحْرِ مَكَّةَ وَطَافَ وَسَعَى كَمُلَ حَجُّهُ، وَمَنْ تَأَخَّرَ عَنْ ذَلِكَ مُنِعَ دُخُولَ مَكَّةَ لِفِتْنَةٍ جَرَتْ بَيْنَ أَمِيرِ الْحَاجِّ وَأَمِيرِ مَكَّةَ.

سَنَةُ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ

فيها وِزَارَةِ شَاوُرَ لِلْعَاضِدِ الخليفة الفاطمي بِمِصْرَ وستأتي أخبار شاور مع أسد الدين وصلاح الدين.

وفي هذا العام جمع نور الدّين جيشه، وسار لغزو الفرنج، ونزل تحت حصن الأكراد ومن عزمه محاصرة طرابلس، فتجمعت الفرنج وكبسوا المسلمين، فلم يشعروا إلا بظهور الصلبان من وراء الجبل فلم يستمكن المسلمون من الأهبة، فوقع فيهم القتل والأسر، وقصدوا خيمة السلطان نور الدّين فنجا نور الدّين، ونزل على بحيرة حمص وقال: والله لا أستظلّ بسقفٍ حتى آخذَ بالثأر.

وفيها توفي سلطان المغرب والأندلس: عبد المؤمن بن علي القيسي التلمساني.

مات غازيًا بمدينة سلا ،وكان من خيار الملوك موصوفاً بالعدل والفضل وكثرة الجهاد وحسن السياسة قال الذهبي بعد أن أثنى عليه: (كان كثيرَ المحاسن متين الدّيانة قليلَ المثلِ وكان يقرأ كلّ يوم سبعًا من القرآن [١٢])اهـ.

سنة تسع وخمسين وخمسمائة

فيها جهّز نور الدّين جيشًا عليهم أسد الدّين شيركوه إلى مصر نجدة لشاور، لكونه قصده واستجار به من ضرغام، وكان قد نازعه في الوزارة وغلب عليها. وطلب من نور الدّين إرسال العساكر إلى مصر ليعود إلى منصبه، ويكون لنور الدّين ثلث دخل البلاد بعد إقطاعات العساكر، ويكون نائب نور الدّين مقيماً بعساكره في مصر، فأول دخولهم قتل أسد الدّين شيركوه الملك المنصور الذي كان قد قهر شاور، وأخذ وزارة مصر منه. ثمّ تمكن شاور ولم يلتفت إلى شيركوه، ثم إن شاور غدر وعاد عما كان قرره مع نور الدّين وأمر أسد الدّين بالعود إلى الشام فامتنع فأرسل شاور يستنجد بالفرنج، فسارعوا إليه، وبذل لهم ذهبًا عظيمًا، فجاؤوا من القدس والسواحل، والتجأ شيركوه وعسكر الشام إلى مدينة يقال لها بلبيس ، وجعلها ظهرًا له، وحصروه ثلاثة أشهر وهو يقاتلهم فبينا هم كذلك إذ أتاهم الصريخ أنّ نور الدّين أخذ حصن حارمٍ منهم وسار إلى بانياس، فُسقط في أيديهم، وهمّوا بالعود إلى بلادهم ليحفظوها، وطلبوا الصُّلح مع شيركوه، فأجابهم لقلة الأقوات، وسار شيركوه إلى الشّام سالمًا.

وَكَانَ أَسد الدّين وَأَخُوهُ الْأَكْبَر نجم الدّين أَيُّوب والد صلاح الدّين من الفرسان الشجعان من قواد نور الدّين.

---

(١٢)العبر: ٣/ ٢٩.

وهما ابْنا شاذي من بلد يقع في أذْرَبِيجان وأصلهما من الأكراد الروادية وَهَذَا الْقَبِيل من أشرف الأكراد. وقيل، بل أصل هذا البيت خاصة من العرب. والصحيح في نسبهم أنهم أكراد من أشراف الأكراد.

وفيها وقعة حارم اجتمع فيها عدد من ملوك الفرنجة منهم صاحب أنطاكية وبعد قتال عظيم انتصر المسلمون بقيادة نور الدّين وكان في جملة الأسرى من ملوك الفرنجة صاحب أنطاكية، وصاحب طرابلس، وفيها بعد فتح قلعة حارم افتتح قلعة بانياس في آخر السنة. وكان لها بيد الفرنج ستة عشر عامًا. وقيل كان فتح بانياس سنة (٥٦٠هـ).

في سنة إحدى وستين وخمسمائة

فيها افتتح نور الدّين حصن المنيطرة وَكان بيد الفرنج.

وفيها ظهر ببغداد الرفض والسبّ للصحابة.

قصة عودة جند نور الدّين إلى مصر ثم تملّكها وقصة صلاح الدّين في مصر

في سنة اثْنَتَيْنِ وَسِتِّينَ وَخمْس مئة

عَاد أَسد الدّين إِلَى مصر وَقد كَانَ بعد رُجُوعه من مصر لَا يزَال يحدث نَفسه بقصدها ومعاودتها حَرِيصًا على الدُّخُول إِلَيْهَا يتحدث بِهِ مَعَ كل من يَثِق إِلَيْهِ وَكَانَ مِمَّا يهيجه على الْعود زِيَادَة حقده على شاور وَمَا عمل مَعَه فَلَمَّا كَانَ هَذِه السّنة تجهز وَسَار إِلَيْهَا وسيَّرُ نورُ الدّين مَعَه جمَاعَة من الْأُمَرَاء وَابْن أَخِيه صَلَاح الدّين يُوسُف.

ثم إِن أَسـد الدّين جدَ فِي السّـير على البرّ وَترك بِلَاد الإفرنج عَن يَمِينه فوصـل إِلَى الديار المصرـية وَقصـد إطفيح وَعبر النّيل عِنْدهَا إِلَى الْجَانِب الغربي وَنزل بالجيزة مُقَابل مصرـ وَتصرف فِي الْبِلَاد الغربية وَأَقَام بهَا نيفاً وَخمسين يَوْمًا.

وَكَانَ شاور لما بلغه مَجِيء أَسد الدّين راسل الفرنج يستغيث بهم ويستصرخهم فَأتوهُ مسرعين فَتَارَة يحثّهم طمعهم فِي ملك مصر على الْجدّ والتشمير وَتارَة يحدوهم خوفهم من أَن يملكهَا عساكر نور الدّين فالرجاء يقودهم وَالْخَوْف يسوقهم فَلَمَّا وصلوا إِلَى مصر عبروا إِلَى الْجَانِب الغربي وَكَانَ أَسد الدّين وجيشه قد سَارُوا إِلَى الصَّعِيد فبلغوا مَكَانا يعرف بالبابين وسارت العساكر المصرية والفرنج وَرَاءَهُمْ فأدركوهم بِهِ وَكَانَ قد أرسل إِلَيْهِم جواسيس فعادوا وَأَخْبرُوهُ بِكَثْرَة عَددهمْ وجدّهم فِي طلبه فعزم على لقائهم وقتالهم وَأَن تحكم السيوف بَينه وَبينهمْ إِلَّا أَنه خَافَ من أَصْحَابه أَن تضعف نُفُوسهم عَن الثَّبَات فِي هَذَا الْمقَام الْخطر لقلَّة عَددهمْ وبعدهم عَن بِلَادهمْ فاستشارهم فكلهم أَشَارَ عَلَيْهِ بعبور النّيل إِلَى الْجَانِب الشَّرْقِي وَالْعود إِلَى الشَّام وَقَالُوا لَهُ إِن نَحن انهزمنا وَهُوَ الَّذِي لَا شكّ فِيهِ فَإِلَى أَيْن نلتجئ وبمن نحتمي وكل من فِي هَذِه الديار عدوٌّ لنا وكان عددهم ألفا فَارس وقد بعدُوا عَن دِيَارهمْ وعدوهم عدده يبلغ عشرات الأُلُوف ثم قام إِنْسَان من مماليك نور الدّين وكان شجاعا مشهوراً وَقَالَ من يخَاف الْقَتْل والجراح والأسر فَلَا يخْدم الْمُلُوك بل يكون فلاحاً أَو مَعَ النِّسَاء فِي بَيته وَالله لَئِن عدتم إِلَى الْملك الْعَادِل من غير غَلَبَة وبلاء تعْذرون فِيهِ ليأخذنّ إقطاعاتكم وَيَقُول لكم أتأخذون أَمْوَال الْمُسلمين وتفرّون عَن عدوّهم وتُسْلِمون مثل هَذِه الديار المصرية يتَصَرَّف فِيهَا الْكفَّار؟

قَالَ أَسـد الدّين هَذَا رَأْيِي وَبِه أعمل وَ وَافَقَهُمَا صَـلَاح الدّين يُوسُـف بن أَيُّوب ثمَّ كثر الموافقون لَهُم على الْقِتَال فاجتمعت الْكَلِمَة على اللِّقَاء فَأَقَامَ بمكانه حَتَّى أدْركهُ المصريون والفرنج وَهُوَ على تعبئة جعل الأثقال فِي الْقلب يتكثر بهَا وَلِأَنَّهُ لم يُمكنهُ أَن يَتْرُكهَا بمَكَان آخر فينهبها أهل الْبِلَاد ثمَّ إِنَّه جعل صَلَاح الدّين ابْن أَخِيه فِي الْقلب وَقَالَ لَهُ وَلمن مَعَه إِن الفرنج والمصريين يظنون أنني فِي الْقلب فهم يجْعَلُونَ جمرتهم بإزائه وحملتهم عَلَيْهِ فَإِذا حملُوا عَلَيْكُم فَلَا تَصْدُقوهم الْقِتَال وَلَا تُهلكوا نفوسكم واندفعوا بَين أَيْدِيهم فَإِذا عَادوا عَنْكُم فَارْجِعُوا فِي أَعْقَابهم وَاخْتَارَ من شجعان أَصْحَابه جمعاً يَثِق بهم وَيعرف صبرهم وشجاعتهم ووقف بهم فِي الميمنة فَلَمَّا تقَابل الطائفتان فعل الفرنج مَا ذكره أَسد الدّين وحملوا على الْقلب ظنا مِنْهُم أَنه فِيهِ فَقَاتلهُمْ من بِهِ قتالا يَسِيرا ثمَّ انْهَزمُوا بَين أَيْدِيهم فتبعوهم فَحمل حِينَئِذٍ أَسد الدّين فِيمَن مَعَه على من تخلف من الفرنج الَّذين حملُوا على الْقلب من الْمُسلمين والفرنج فَهَزَمَهُمْ وَوضع السَّيْف فيهم فأثخن وَانْهَزَمَ الْبَاقُونَ فَلَمَّا عَاد الفرنج من أثر المنهزمين الَّذين كَانُوا فِي الْقلب رَأَوْا مَكَان المعركة من أَصْحَابهم بلقعاً لَيْسَ بهَا مِنْهُم ديار فَانْهَزَمُوا أَيْضا قيل: وَكَانَ هَذَا من أعجب مَا يؤرّخ أَنّ ألفي فَارس تهزم عَسَاكِرَ مصر وفِرنج السَّاحِل.

ثمَّ سَار أَسد الدّين إِلَى ثغر الْإِسْكَنْدَرِيَّة ووصل إليها فتسلمها من غير قتال سلمهَا أَهلهَا إِلَيْهِ فاستناب بهَا صَلَاح الدّين ابْن أَخِيه وَعَاد إِلَى الصَّعِيد وتملكه وَأقَام بِهِ حَتَّى صَامَ رَمَضَان وأقامت الفرنج بالقاهرة ثم قصدوا الإسكندرية وفيها صلاح الدّين فحاصروه أربعة أشهر ثمّ كرّ أسد الدّين منجدًا له فترحلت الفرنج بعد معاهدة وصلح معهم، وصالح شاور وزير الفاطميين أسد الدّين على خمسين ألف دينار فأخذها أسد

الدّين ونزل إلى الشـام. فهذه كانت المرة الثانية لذهاب صـلاح الدّين مع عمه إلى مصرـ في جيش نور الدّين.

وفي سـنة ثلاث وسـتين وخمسـمائة أنعم السـلطان نور الدّين على أسـد الدّين شـيركوه بحمص وأعمالها فتملّكها، ثم صارت لذرّيته.

سنة أربع وستين وخمسمائة

فيها كان مسـيرُ أسـدّ الدّين إلى مصرـ المسـير الثالث، وذلك أنّ الفرنج قصـدت الديار المصرـية في جمعٍ عظيم، وكان السـلطان نور الدّين في جهة الشـمال ونواحي الفرات، فطلعوا من عسـقلان، وأتوا مدينة بَلْبِيس فملوكها، واسـتباحوها، وَسَـارُوا مِنْ بِلْبِيسَ إِلَى مِصْرَ، فَنَزَلُوا إِلَى الْقَاهِرَةِ وَحَصَرُـوهَا، فَخَافَ النَّاسُ مِنْهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا بِهِمْ كَمَا فَعَلُوا بِأَهْلِ بِلْبِيسَ، فَحَمَلَهُمُ الْخَوْفُ مِنْهُمْ عَلَى الِامْتِنَاعِ، فَحَفَظُوا الْبَلَدَ، وَقَاتَلُوا دُونَهُ وَبَذَلُوا جُهْدَهُمْ فِي حِفْظِهِ، فَلَوْ أَنَّ الْفِرِنْجَ أَحْسَـنُوا السِّـيرَةَ فِي بِلْبِيسَ لَمَلَكُوا مِصْرَـ وَالْقَاهِرَةَ ؟ وَأَمَرَ شَاوُرُ بِإِحْرَاقِ مَدِينَةِ مِصْرَـ خوفاً من الفرنج وَأَمَرَ أَهْلَهَا بِالِانْتِقَالِ مِنْهَا إِلَى الْقَاهِرَةِ، فلما ضـايقوا القاهرة بعث إلى ملكهم يطلب الصـلح على ألف ألف دينار يُعجّل لـه بعضـها. فأجابه ملك الفرنج إلى ذلك وحلف لـه، فحمل إليه شـاور مئة ألف دينار وماطله بالباقي وَرَأَى الْفِرِنْجَ أَنَّ الْبِلَادَ قَدِ امْتَنَعَتْ عَلَيْهِمْ، وَرُبَّمَا سُلِّمَتْ إِلَى نُورِ الدّين، فَأَجَابُوا كَارِهِينَ، وَقَالُوا: نَأْخُذُ الْمَالَ، فَنَتَقَوَّى بِهِ ثم نعودُ.

وكاتب في غضـونِ ذلك الملك العادل نور الدّين يسـتنجد به، وسـوّد كتابه، وجعل في طيّه ذوائب نسـاءه، وواصـل كتبه يسـتحثّه، فسـاق أسـد الدّين من حمص إلى حلب في ليلة.

قال القاضي بهاء الدّين يوسف بن شدّاد: قال لي السلطان صلاح الدّين: كنتُ أكرهُ الناس في الخروج إلى مصر هذه المرة، وهذا معنى قوله: (أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) [١٣]. قالوا: وأعطى نورُ الدّين الأموالَ والرّجال لأسدِ الدّين وَأَضَافَ معه جَمَاعَةً أُخْرَى مِنَ الْأُمَرَاءِ الشجعان ، وقال له: إنْ تأخرتَ عن مصر سرتُ أنا بنفسي، فإن ملكها الفرنج لا يبقى معهم بالشام مقام. قال صلاح الدّين فالتفت إليّ عمي وقال: تجهّز يا يوسف. قال :فكأنما ضرب قلبي بسكين! فقلت: والله لو أُعطيتُ ملك مصر ما سرتُ إليها، فلقد قاسيتُ بالإسكندرية من المشاقّ ما لا أنساه. فقال عمّي لنور الدّين: لا بدّ من مسيره معي، فأمرني نور الدّين وأنا أستقيله، وانقضى المجلس. ثم قال نور الدّين: لا بدّ من مسيرك مع عمك. فشكوت الضائقة، فأعطاني ما تجهزت به، وكأنما أساق إلى الموت. وكان نور الدّين مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته، قال صلاح الدّين: ثم أَعْطَانِي الله من ملكهَا مَا لَا كنت أتوقعه قال: فسرتُ معه [١٤].

قالوا :فَلَمَّا قَارَبَ أسد الدّين وجيشه مِصْرَ رَحَلَ الْفِرِنْجُ عَنْهَا عَائِدِينَ إِلَى بِلَادِهِمْ بِخُفَّيْ حُنَيْنٍ خَائِبِينَ مِمَّا أَمَّلُوا، وَسَمِعَ نُورُ الدّين بِعَوْدِهِمْ، فَسَرَّهُ ذَلِكَ، وَأَمَرَ بِضَرْبِ الْبَشَائِرِ فِي الْبِلَادِ، وَبَثَّ رُسُلَهُ فِي الْأَفَاقِ مُبَشِّرِينَ بِذَلِكَ، فَإِنَّهُ كَانَ فَتْحًا جَدِيدًا لِمِصْرَ وَحِفْظًا لِسَائِرِ بِلَادِ الشَّامِ وَغَيْرِهَا.

وَدَخَلَ إِلَيْهَا أسد الدّين وَاجْتَمَعَ بِالخليفة الْعَاضِدِ لِدِينِ اللهَّ الفاطمي المغلوب على أمره، وَخَلَعَ عَلَيْهِ وَفَرِحَ بِهِ أَهْلُ مِصْرَ، وَأُجْرِيَتَ عَلَيْهِ وَعَلَى عَسْكَرِهِ الْجِرَايَاتُ الْكَثِيرَةُ، وَلَمْ

---

(١٣)النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية للقاضي ابن شداد: صـ٧٩ و الروضتين في أخبار الدولتين للحافظ أبي شامة: ٢/ ٥٢

(١٤)الروضتين في أخبار الدولتين للحافظ أبي شامة: ٢/ ٥٢

يُمْكِنْ شَاوُرُ الْمَنْعَ عَنْ ذَلِكَ لِأَنَّهُ رَأَى الْعَسَاكِرَ كَثِيرَةً مَعَ شِيرِكُوهْ وَهَوَى الْعَاضِدِ مَعَهُمْ، فَلَمْ يَتَجَاسَرْ عَلَى إِظْهَارِ مَا فِي نَفْسِهِ، وَشَرَعَ شاورُ يُمَاطِلُ أَسَدَ الدّين فِي تَقْرِيرِ مَا كَانَ بَذَلَ لِنُورِ الدّين مِنَ الْمَالِ، وَإِقْطَاعِ الْجُنْدِ، وَإِفْرَادِ ثُلُثِ الْبِلَادِ لِنُورِ الدّين، ثُمَّ إِنَّهُ عَزَمَ عَلَى أَنْ يَعْمَلَ دَعْوَةً يَدْعُو إِلَيْهَا أَسَدَ الدّين وَالْأُمَرَاءَ الَّذِينَ مَعَهُ، وَيَقْبِضَ عَلَيْهِمْ، وَيَسْتَخْدِمَ مَنْ مَعَهُمْ مِنَ الْجُنْدِ، فَيَمْنَعَ بِهِمُ الْبِلَادَ مِنَ الْفِرِنْجِ، فَنَهَاهُ ابْنُهُ الْكَامِلُ، وتجادلا فقال ابنه: والله لَأَنْ نُقْتَلَ وَنَحْنُ مُسْلِمُونَ وَالْبِلَادُ إِسْلَامِيَّةٌ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ نُقْتَلَ وَقَدْ مَلَكَهَا الْفِرِنْجُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَوْدِ الْفِرِنْجِ إِلَّا أَنْ يَسْمَعُوا بِالْقَبْضِ عَلَى شِيرِكُوهْ ، وخَافُ عسكرُ نور الدّين شَرَّ شاور فاتَّفَقَ صَلَاحُ الدّين مع بعض القادة عَلَى قَتْلِ شَاوُرَ، فَأَعْلَمُوا أَسَدَ الدّين، فَنَهَاهُمْ عَنْهُ، فَسَكَتُوا وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْعَزْمِ مِنْ قَتْلِهِ، فَاتَّفَقَ أَنَّ شَاوُرَ قَصَدَ عَسْكَرَ أَسَدِ الدّين عَلَى عَادَتِهِ، فَلَمْ يَجِدْهُ ، فَلَقِيَهُ صَلَاحُ الدّين وَخَدَمُوهُ، وَأَعْلَمُوهُ بِأَنّ شِيرِكُوهْ فِي زِيَارَةِ قَبْرِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ، فَقَالَ: نَمْضِي إِلَيْهِ، فَسَارُوا جَمِيعًا، فَسَايَرَهُ صَلَاحُ الدّين وقائد آخر معه وأَلْقَيَاهُ إِلَى الْأَرْضِ عَنْ فَرَسِهِ، فَهَرَبَ أَصْحَابُهُ عَنْهُ، فَأُخِذَ أَسِيرًا، فَلَمْ يُمْكِنْهُمْ قَتْلُهُ بِغَيْرِ أَمْرِ أَسَدِ الدّين، فَتوَكَّلُوا بِحِفْظِهِ، وَسَيَّرُوا فَأَعْلَمُوا أَسَدَ الدّين الْحَالَ، فَحَضَرَ، وَلَمْ يُمْكِنْهُ إِلَّا إِتْمَامُ مَا عَمِلُوهُ

وَدَخَلَ أَسَدُ الدّين الْقَاهِرَةَ وخلعَ عليه العاضد خلعة الوزارة وَلُقِّبَ بِالْمَلِكُ الْمَنْصُور أَمِير الْجُيُوشِ وصار الآمر الناهي وصفا له الأمر لكنّ أَسَدِ الدّين توفي بعد خمسة وستين يوماً من ولايته.

وكان أسد الدّين فاضلاً شجاعاً وكان هو وأخوه من أَعْظَمَ أُمَرَاءِ نورالدّين.

وقلّد العاضدُ صلاحَ الدّين الأمور، ولقبه بـــ:الملك النّاصر وكان صلاح الدّين يقول: لما يسّر الله ديار مصر: علمتُ أنّه أراد فتح السّاحل، لأنّه أوقع ذلك في نفسي. ومن حين استتب الأمر لصلاح الدين استمرّ يشن الغارات على الإفرنج.

وفى هذا التاريخ كان ابتداء الدولة الأيوبية، وأخذت الدولة المصرــية في الضــعف والانحطاط إلى أن انقرضت بالكلية بعد سنتين [١٥] كما سيأتي.

وكان في جيش أسـد الدّين أُمَرَاء بعضُـهم أكبر سـنّاً من صـلاح الدينَ يُرِيدُونَ الْأَمْرَ لِأَنْفُسِـهِمْ فأتمّ الله الأمر لصـلاح الدّين بعد أحداث حصـلت وَاسْـتَمَالَ صَـلَاحُ الدّين قُلُوبَ النَّاسِ، وَبَذَلَ الْأَمْوَالَ، فَمَالُوا إِلَيْهِ، وَأَحَبُّوهُ، وَضَـعُفَ أَمْرُ الْعَاضِـدِ، ثُمَّ أَرْسَـلَ صَـلَاحُ الدّين يَطْلُبُ مِنْ نُورِ الدّين أَنْ يُرْسِـلَ إِلَيْهِ إِخْوَتَهُ وَأَهْلَهُ، فَأَرْسَـلَهُمْ إِلَيْهِ وَعَزَلَ صلاح الدّين جَمِيعَ الْخَدَمِ الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ أَمْرَ قَصْرِ الْخِلَافَةِ بعد محاولة فاشلة من بعضهم لمراسلة الفرنج والانقلاب على صلاح الدّين وَاسْتَعْمَلَ صلاح الدّين عَلَى الْجَمِيعِ بَهَاءَ الدّين قَرَاقُوشَ، وَهُوَ خَصِيٌّ أَبْيَضُ.

وفي سنة خمس وستين وخمسمائة دخل نجم الدّين أيوب مصرـ، فخرج العاضد إلى لقائه بنفسه، وتأدّب ابنه صلاح الدّين معه، وعرض عليه منصبَهُ.

وفيها توفي قطب الدين مودود بن زنكي صـاحب الموصـل أخو نور الدين، وكان من أحسن الملوك سيرة.

---

(١٥)مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل الحموي:(١/ ١٧١).

ونزلت الفرنج على دمياط في صفر، فحاصروها واحداً وخمسين يوماً ثمّ رحلوا خائبين، وذلك أنّ نور الدّين وصلاح الدّين أجلبا عليها برّا وبحرا، وأغارا على بلادهم.

سَنَةُ سِتٍّ وَسِتِّينَ وَخَمْسِمِائَةٍ فيها سَارَ صَلَاحُ الدّين عَنْ مِصْرَ إِلَى بِلَادِ الْفِرِنْجِ، فَأَغَارَ عَلَى أَعْمَالِ عَسْـقَلَانَ وَالرَّمْلَةِ، وَهَجَمَ عَلَى رَبَضِ غَزَّةَ فَنَهَبَهُ، وَأَتَاهُ مَلِكُ الْفِرِنْجِ فِي قِلَّةٍ مِنَ الْعَسْكَرِ مُسْرِعِينَ لِرَدِّهِ عَنِ الْبِلَادِ، فَقَاتَلَهُمْ وَهَزَمَهُمْ، وَأَفْلَتَ مَلِكُ الْفِرِنْجِ.

وفيها بنى صـلاح الدّين مَدْرَسَـةً لِلشَّـافِعِيَّةِ، وَأَزَالَ مظالم كثيرة ، وَعَزَلَ قُضَـاةَ الْمِصْرِيِّينَ الفاطميين، وَكَانُوا شِيعَةً، وَأَقَامَ قَاضِيًا شَافِعِيًّا فِي مِصْرَ.

وفي سـنة سـبع وسـتين وخمسـمائة قُطِعَتْ خُطْبَةُ الْعَاضِـدِ لِدِينِ اللَّهِ الفاطمي آخر خلفاء العبيديين بمصرــ وكان نُورُ الدّين مَحْمُودُ كتب إلى صــلاح الدّين يَأْمُرُهُ بِقَطْعِ الْخُطْبَةِ للفاطميين وَإِقَامَةِ الْخُطْبَةِ للخليفة المستضيء العباسي ، فَامْتَنَعَ صَلَاحُ الدّين أوّل الأمر، وَاعْتَذَرَ بِالْخَوْفِ مِنْ قِيَامِ أَهْلِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ عَلَيْهِ لِمَيْلِ كثير منهم إِلَى الْعَلَوِيِّينَ فألحّ عليه نور الدّين فقطع الخطبة وخطبَ للعباسيين.

وَكَانَ الْعَاضِدُ الفاطمي قَدِ اشْتَدَّ مَرَضُهُ فَلَمْ يُعْلِمْهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ وَأَصْحَابِهِ بِقَطْعِ الْخُطْبَةِ حتى توفي.

ثم تسـلّم صـلاحُ الدّين قصرـ العاضـد وفيه من الْأَعْلَاقِ النَّفِيسَـةِ وَالْأَشْـيَاءِ الْغَرِيبَةِ والجواهر والأموال مالا يكاد يحصى.

وكان صلاح الدّين لا يخرج عن أمر نور الدّين وكان نور الدّين يبجله ويعرف له قدره، ولكن جرى فِي هَذِهِ السَّنَةِ أُمُورٌ أَوْجَبَتْ أَنْ تَأَثَّرَ نُورُ الدّين مِنْ صَلَاحِ الدّين رحمهما الله،

فقد سار نور الدّين لحصار الفرنج في الكَرَك [١٦] وأمر صلاح الدّين أن يسير من مصر ليجتمعا على حصاره معاً ووصل نور الدّين ولكن تأخر صلاح الدّين ثم أرسل يعتذرُ، وكان بعض خواص صلاح الدّين خوّفوه من الاجتماع مع نور الدّين فلم يقبل نور الدّين عُذره.

وهمّ بالدخول إلى مصر وعزْل صلاح الدّين عنها. ثم إنّ نجم الدّين والد صلاح الدّين أشار على ابنه بمكاتبة نور الدّين والخضوع له فأرسل إليه واعتذر وخضع ففتر عنه وانشغل بما كان يعالجه من أمور عظيمة من الجهاد وأمور المسلمين.

وفي سنة ثمان وستين وخمسمائة

افتتح شمس الدولة أخو صلاح الدّين برقة ، ثم سار بعد ذلك وافتتح اليمن.

وفيها هزم مليح بن لاون الأرمني النصراني عسكر الروم، وقد جهز إليه صاحب الرّوم جيشا كثيفاً، فالتقاهم مليح هذا، ومعه طائفةٌ من عسكر المسلمين، فهزمهم.

وذلك أن نور الدّين رحمه الله كان قد استخدمه وأقطعه بلاداً واستماله، وظهر له منه نصحه، وكان ملازما لخدمة نور الدّين، معينا له على الفرنج، ولما قيل لنور الدّين في معنى استخدامه وإعطائه بلاد سيس قال: أستعين به على قتال أهل ملّته وأُريح طائفة

---

(١٦)قلعة حصينة جدّا مشهورة في طرف الشام: معجم البلدان:٤/ ٤٥٣ وتقع الْكَرْكُ حالياً في الأردن وتَبْعُدُ قُرَابَةَ (١١٥) كَيْلًا جَنُوبَ عَمَّان مَعَ مَيْلٍ إلَى الْغَرْبِ، يَمُرُّ بِهَا طَرِيقٌ يَصِلُ الْعَقَبَةَ بِعَمَّانَ، وَلَا يَمُرُّ بِمَعَانٍ. معجم الْمَعَالِمِ الْجُغْرَافِيَّةِ فِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ لعاتق البلادي: صـ ٢٩٧. و المعالم الأثيرة في السنة والسيرة لشراب:صـ ٢٧٩.

من عسكري، وأجعله سدّاً بيننا وبين صاحبِ القسطنطينية. وهذا من حنكة وسياسة نور الدين وبعد نظره.

سنة تسع وستين وخمسمائة

فيها توفي السلطان العادل المجاهد الصالح :نور الدّين محمود زنكي، فتجدّد بحلب بعد موته اختلاف بين السنة والرافضة، فقتل من الطائفتين خلقٌ. وكان ملك نور الدين قد اتسع جِدًّا وَخُطِبَ لَهُ بِالْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ وَبِالْيَمَنِ ، وقد عمرت الشام في زمانه لعدله وحسن سيرته [١٧].

وَكَانَ أَسْمَرَ، طَوِيلَ الْقَامَةِ، حَسَنَ الصُّورَةِ، حُلْوَ الْعَيْنَيْنِ، وَكَانَ مَوْلِدُهُ سَنَةَ إِحْدَى عَشْرَةَ وَخَمْسِمَائَةٍ.

وقد أطال العلماء في مدح هذا السلطان وذكروا بعض خصاله وفضائله لأنه كان قد جمع بين التقوى والعدل والحزم والحكمة والرحمة بالرعية والجهاد وغير ذلك.

قَالَ أَبُو الْحسن ابْن الْأَثِير: (طَبَّقَ ذِكْرُهُ الْأَرْضَ بِحُسْنِ سِيرَتِهِ وَعَدْلِهِ. وقد طالعت تواريخ الْمُلُوك الْمُتَقَدِّمين قبل الْإِسْلَام وَفِيه إِلَى يَوْمنَا هَذَا فَلم أر فِيهَا بعد الْخُلَفَاء الرَّاشِدين وَعمر بن عبد الْعَزِيز ملكا أحسن سيرة من الْملك الْعَادِل نور الدّين وَلَا أَكثر تحرّيا للعدل والإنصاف مِنْهُ، قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره وَجِهَاد يتجهز لَهُ ومظلمة يزيلها وَعبادَة يقوم بهَا وإحسان يوليه .. فَلَو كَانَ فِي أمة لافتخرت بِهِ فَكيف بَيت وَاحِد.

([١٧])ينظر: زبدة الحلب في تاريخ حلب لابن العديم: صـ ٣٥٨.

أما زهده وعبادته وَعلمه فَإِنَّهُ كَانَ مَعَ سَــعَة ملكه وَكَثْرَة ذخائر بِلَاده وأموالها لَا يَأْكُل وَلَا يلبس وَلَا يتَصَرَّـف فِيمَا يَخُصُّـهُ إِلَّا من ملك كَانَ لَهُ قد اشْـتَرَاهُ من سَـهْمه من الْغَنِيمَة وَمن الْأَمْوَال المرصـدة لمصَـالح الْمُسـلمين أحضرـ الْفُقَهَاء واسـتفتاهم فِي أَخذ مَا يحل لَهُ من ذَلِك فَأخذ مَا أفتوه بحله وَلم يتعده إِلَى غَيره الْبَتَّةَ قال ابْن الْأَثِير وَكَانَ – رحمه الله – يصلى كثيرا من اللَّيْل وَيَدْعُو ويستغفر وَيقْرَأ وَلَا يزَال كَذَلِك إِلَى أَن يركب

(جمع الشجَاعَة والخشوع لرَبه ... مَا أحسن الْمِحْرَاب فِي الْمِحْرَاب)

قَالَ وَكَانَ عَارِفًا بالفقه على مَذْهَب الإِمَام أبي حنيفَة رضي الله عنه لَيْسَ عِنْده تعصــب بل الْإِنْصَـاف سـجيته فِي كل شَيْء وَسـمع الحَدِيث وأسـمعه طلبا لِلْأجرِ، وعَلى الْحَقِيقَة فَهُوَ الَّذِي جدد للملوك اتِّبَاع ســنة الْعدْل والإنصـــاف وَترك الْمُحرمَات من المأكل وَالْمشْرَــب والملبس وَغير ذَلِك فَإِنَّهُم كَانُوا قبله كالجاهلية همُّ أحدهم بَطْنه وفرجه لَا يعرف مَعْرُوفا وَلَا يُنكر مُنْكرا حَتَّى جَاءَ الله بدولته فَوقف مَعَ أَوَامِر الشَّرْــع ونواهيه وألزم بذلك أَتْبَاعه وَذَوِيهِ فاقتدى بِهِ غَيره مِنْهُم واســتحيوا أَن يظْهر عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ (وَمن سنّ سنة حَسَنَة كَانَ لَهُ أجرهَا وَأجر من عمل بهَا إِلَى يَوْم الْقِيَامَة [١٨])اهـ.

قَالَ : (وَأما عدله فَإِنَّهُ كَانَ أحسـن الْمُلُوك سـيرة وأعدلهم حكما فَمن عدله أَنه لم يتْرك فِي بلد من بِلَاده ضريبة وَلَا مكســا وَلَا عشرــا بل أطلقها رَحْمَة الله جَمِيعهَا فِي بِلَاد الشَّــام والجزيرة جَمِيعهَا والموصــل وأعمالها وديار مصرــ وَغَيرهَا مِمَّا حكم عَلَيْهِ وَكَانَ المكس فِي مصر يُؤْخَذ من كل مئة دِينَار خَمْسَة وَأَرْبَعُونَ دِينَارا فأطلقها وَهَذَا لم تتسع لَهُ نفس غَيره

(١٨)الباهر: لابن الأثير: ١٦٣ – ١٦٥ والكامل: ٩/ ٣٩٤ له والروضتين لأبي شامة : ١/ ٣٣.

وَكَانَ يتحَرَّى الْعدْل وينصف الْمَظْلُوم من الظَّالِم كَائِنا من كَانَ القوى والضعيف عِنْده فِي الْحق سَوَاء وَكَانَ يسمع شكوى الْمَظْلُوم ويتولى كشف حَاله بِنَفسِهِ وَلَا يكل ذَلِك إِلَى حَاجِب وَلَا أَمِير فَلَا جَرَمَ سَار ذكره فِي شَرق الأَرْض وغربها(.

وقال أيضا في بعض ما جاء من أخباره : (وَهَذَا غَايَة الْعدْل والإنصاف بل غَايَة الْإِحْسَان وَهِي دَرَجَة وَرَاء الْعدْل فرحم الله هَذِه النَّفس الزكية الطاهرة المنقادة إِلَى الْحق الواقفة مَعَه)اهـ.

وقال ابن عساكر وهو معاصر له: (الملك العادل نور الدين وناصر أمير المؤمنين ... ثم قال بعد ثناءٍ عليه وذكر لبعض أخباره:(وأظهر بحلب السنّة حتى أقام شعار الدّين وغيّر البدعة التي كانت لهم في التّأذين وقمعَ بها الرّافضة المبتدعة ونشر فيها مذاهب أهل السنّة الأربعة وبنى بها المدارس ووقف الأوقاف وأظهر فيها العدل والإنصاف قال: وبلغني أنه في الحرب رابط الجأش ثابتُ القَدَم شديد الانكماش حسنُ الرمي بالسّهام صليب الضَّرب عند ضيق المقام يقدُم أصحابه عند الكرّة ويحمي منهزِمَهم عند الفرّة ويتعرّض بجهده للشهادة.. فالله يقي مهجتَه من الأسواءِ ويحْسِن له الظّفر بجميع الأعداء فلقد أحسن إلى العلماء وأكرمهم وقرب المتديّنين واحترمهم وتوخّى العدل في الأحكام والقضايا وألان كنَفه وأظهر رأفته بالرعايا.

وبنى في أكثر مملكته آدُرَ العدلِ وأحضرها القضاةَ والفقهاء لِلفَصْلِ وحضرها بنفسه في أكثر الأوقاتِ واستمع من المتظلمين الدّعاوي والبيّنات طلباً للإنصافِ والفضل وحرصاً على إقامة العدل وأَدرَّ على الضعفاء والأيتام الصّدقات، وتعهّد ذوي الحاجة من أولي التعفّف بالصّلات حتى وقف وقوفاً على المرضى والمجانين وأقام لهم الأطبّاء

والمعالجين وكذلك على جماعة العُميان ومعلّمي الخطّ والقرآن وعلي ساكني الحرمينِ ومجاوري المسجدين.

وأكرمَ أميرَ المدينة الحسين وأحسن إليه وأجرى عليه الضّيافة لما قدِم عليه، وجهّز معه عسكراً لحفظ المدينة وقام لهم بما يحتاجون إليه من المؤونة وأقطعَ أميرَ مكة إقطاعاً سنيّا وأعطى كلّا منهما ما يأكله هنيّاً مريّا.

ورفعَ عن الحجاج ما كان يؤخذ منهم من المكس.

وأقطع أمراء العرب الإقطاعات لئلا يتعرّضوا للحجّاج بالنّحس وأمرَ بإكمال سُور مدينة الرّسول واستخراج العينِ التي بأحدٍ وكانت قد دفنتها السّيول.

ودعي له بالحرمين واشتهر صيته في الخافقين وعمر الرّبُطَ والخانقات والبيمارستانات وبنى الجُسور في الطرق والخاناتِ.

ونصب جماعة من المعلمين لتعليم يتامى المسلمين وأجرى الأرزاق على معلميهم وعليهم بقدر ما يكفيهم، وكذلك صنع لما ملك سنجار وحرّان والرّها والرقّة ومنبج وشيزر وحماة وحمص وبعلبك وصرخد وتدمر فما من بلدٍ منها إلا وله فيه حُسن أثرٍ وما من أهلها أحد إلا نظر له أحسن نظرٍ وحصّل الكثيرَ من كتُب العلوم ووقفها على طلّابها وأقام عليها الحفظة من نقلتها وطلّابها وأربابِها وجدّد كثيراً من ذي السبيل وهدى بجهده إلى سواء السبيل وأجهد نفسه في جهاد أعداء الله وبالغ في حربهم وتحصّل في أسره جماعة من أمراء الفرنج خذلهم الله [١٩])اهـ.

---

(١٩)تاريخ ابن عساكر:٥٧/ ١٢٠.

ثم ذكر الحافظ ابن عساكر بعض أولئك الأمراء من الفرنج وذكر كثيرا من غزواته وظفره بالفرنج والروم ومعاركه معهم. وقال: (وظهرت - يعني به وبجيشه - كلمة أهل السنة بالديار المصرية وخطب فيها للدولة العباسية بعد اليأس واراح الله من بها من الفتنة ورفع عنهم المحنة قال: ومع ما ذكرتُ من هذه المناقب كلها ..فهو حسن الخط والبنان متأتٍّ لمعرفة العلوم بالفهم والبيان كثيرُ لمطالعتها مائل إلى نقلها مواظبٌ حريص على تحصيل كتب الصّحاح والسّنن مقتنٍ لها بأوفر الأعواض والثّمن كثير المطالعة للعلوم الدينية متبع للآثار النبويّة مواظبٌ على الصّلوات في الجماعات مراعٍ لأدائها في الأوقات مؤدٍّ لفروضها ومسنوناتها .. عاكف على تلاوة القرآن على الأيام حريص على فعل الخير من الصدقة والصيام كثير الدّعاء والتّسبيح .. عفيف البطن والفرج مقتصد في الإنفاق ... برئ من التنجم والتطير مع ما جمع الله له من العقل المتين والرأي الصويب الرصين والاقتداء بسيرة السلف الماضين والتشبّه بالعلماء والصالحين والاقتفاء لسيرة من سلف منهم في حسن سمتهم فمن رآه شاهد من جلال السلطنة وهيبة الملك ما يبهره فإذا فاوضه رأى من لطافته وتواضعه ما يحيِّره ..قال: وأكثر ما أخذه من البلدان يتسلّمه من أهله بالأمان ووفى لهم بالعهود والإيمان .. فالله يديم على الرعية ظله وينشر فيهم رأفته وعدله ويبلِّغه في دينه ودنياه مأمولَه، ويختم بالسعادة والتوفيق أعماله فهو بالإجابة جدير وعلى ما يشاء قدير)هـ. باختصار يسير.

والحافظ ابن عساكر شيخ الشام في عصره حفظاً ومعرفة وتحرّياً. وقد توفي سنة (٥٧١) بعد وفاة نور الدين بأقل من عامين وكان قد كتب هذه الترجمة في تاريخه قبل وفاة نور الدين – رحمهما الله – وألحقنا بالصالحين من عباده. آمين.

وكان بدمشق الملك الصالح إسماعيل ابن السلطان نور الدّين صبي صغير قيل عمره عشر سنين وتحركت الفرنج بالسواحل فاستنجد بصلاح الدّين في مصر. وبلغ صلاح الدّين نزول الفرنج على مدينة بانياس وقد صالحهم الأمراء وأهل دمشق وهادنوهم على مال وأسارى يطلقون. فغضب صلاح الدّين وأرسل يوبّخ بعض الأمراء.

قصّة الذين سعوا في إعادة دولة الفاطميين بني عُبيد

في كلِّ دولةٍ من الدّول يكون لأناسٍ حظوة وحظّ دون آخرين فتبطل مصالحهم أو تضعف عند زوال تلك الدولة وقد كانت دولة العبيديين نافعة لأناس فأبعدوا، فأراد جماعة من شيعة العبيديين إقامة الدعوة وردَّها، وفيهم بعض القضاة والجند والأعيان ووافقهم على ذلك جماعة من أمراء صلاح الدّين، وعينوا الخليفة والوزير، واتفق رأيهم على استدعاء الفرنج من صقليّة والشّام إلى مصر ليشغلوا صلاح الدّين بهم ويخلُو لهم الوقت ليتمّ مكرهم ثم إنّ صلاح الدّين علم بحيلتهم ومكرهم فاحترزَ وعمِلَ هو عليهم حيلةً فتمّ القبضُ عليهم وقتلَ رؤوسهم وأمّا الذين نافقوا على صلاح الدّين من جنده فلم يعرض لهم، ولا أعلمهم بأنه علِم بهم. وهذا من حكمته وكرم أخلاقه.

وجاء أسطول الفرنج من صقلّية ومعهم جيشٌ كبيرٌ، فنازلوا الإسكندرية بغتةً ثمّ إنّ صلاحَ الدّين أنجدهم واقتتلوا فانتصروا عليهم واقتحم المسلمون البحر، فغرّقوا المراكب وحرَقوها إلا مَنْ نجا.

وفيها كما ذكر الذهبي قصة وعظ الشهاب الطوسي في بغداد، وقوله: ابن ملجم لم يكفر بقتله علياً رضي الله عنه، فرموه بالآجرّ من كل ناحية، وثارت عليه الشيعة، ولولا

الغلمان الذين حوله لقتل. ولما هم الميعاد الآخر بالجلوس، تجمّعوا ومعهم قوارير النفط ليحرقوه، فلم يحضر، فأحرقوا منبره الخ.

وفي هذه القصة وأمثالها عبرٌ.

وقد كان في بغداد شيعة وسنّة ولكن كان السنة في عهود الدولة الأولى والقرون الأولى أكثرية غالبة ثمّ كثر التشيع فيها وبقي أكثرها سنة في كثير من العصور فكان يحدث بين الفريقين اقتتال وتنافسٌ .

سنة سبعين وخمسمائة

فيها ملك صــلاح الدّين دمشــق بلا قتالٍ، فقد علم صــلاح الدين أن ولد نور الدين الصالح اسماعيل لا يستقل بأعباء الملك لاتساع أقطاره مع صغر سنه فخرج من مصر ودخل دمشق بغير قتال واتبع طريقة نور الدين في عمارة دمشق والإحسان إلى أهلها ثمّ نازل صلاح الدّين حمص، ونصبت المجانيق على قلعتها حتى دكتها.

وسار إلى حماة فملكها ثم سار إلى حلب وحاصرها إلى آخر الشهر، واشتد على الصالح إسماعيل ابن نور الدّين بها الحصار.

وفيها أرسل صلاح الدّين خطابا إلى الخليفة العباسي في بغداد وفيه ذكر ما فتحه صلاح الدّين من البلدان وجهاد للفرنج في البحر وغيره وطلب فيه تقليدا بالسلطنة على مصر واليمن والمغرب والشام منه.

وفي سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة

فيها قَصَدَ صلاح الدين بِلَادَ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ وكانوا قد عاثوا فساداً وكان الناس يخافونهم لشدة فتكهم وخبثهم، فخرّب بلدهم، وَحَصَرَ قَلْعَةَ مِصْيَافَ، وَهِيَ أَعْظَمُ حُصُونِهِمْ، فَنَصَبَ عَلَيْهَا الْمَجَانِيقَ، وَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ، فَأَرْسَلَ سِنَانٌ مُقَدَّمُ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ إِلَى شِهَابِ الدِّينِ الْحَارِمِيِّ، صَاحِبِ حَمَاةَ وَهُوَ خَالُ صَلَاحِ الدِّينِ، يَسْأَلُهُ أَنْ يَدْخُلَ بَيْنَهُمْ وَيُصْلِحُ الْحَالَ وَيَشْفَعُ فِيهِمْ، وَيَقُولُ لَهُ: إِنْ لَمْ تَفْعَلْ قَتَلْنَاكَ وَجَمِيعَ أَهْلِ صَلَاحِ الدِّينِ وَأُمَرَائِهِ، فَحَضَرَ شِهَابٌ عِنْدَ صَلَاحِ الدِّينِ وَشَفَعَ فِيهِمْ وَسَأَلَ الصَّفْحَ عَنْهُمْ، فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ، وَصَالَحَهُمْ، وَرَحَلَ عَنْهُمْ. وكان عَسْكَرُ صلاح الدين قَدْ مَلُّوا مِنْ طُولِ القتال والمقام.

وفيها سافر صلاح الدّين إلى الإسكندرية، وسمع فيها من الإمام الحافظ أبي طاهر أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ السِّلَفِي، وتردّد إليه مرات عديدة وأطال السماع لحديث النبي صلّى الله عليه وسلّم وتشرف بالجلوس بين يدي هذا الإمام الذي كان من الحفّاظ وكان كثير الرحلة والشيوخ وعالي الإسناد جداً، وأسمع منه ولديه: الملك العزيز، والملك الأفضل. وسيأتي أنه رجع للسماع منه وحضور مجلسه في سنة (٥٧٦هـ).

ثمّ عاد صلاح الدين إلى مصر.

وفيها أَمَرَ صَلَاحُ الدِّينِ بِبِنَاءِ الْمَدْرَسَةِ الَّتِي بقرب قَبْرِ الشَّافِعِيِّ رحمه الله بِمِصْرَ، وَعَمِلَ بِالْقَاهِرَةِ بِيمَارِسْتَانَ (مستشفى)، وَوَقَفَ عَلَيْهِمَا الْوُقُوفَ الْعَظِيمَةَ الْكَبِيرَةَ.

سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

فيها قصة نجاة صَلَاحُ الدّين يُوسُفُ

سار صَلَاحُ الدّين من مِصْرَ إِلَى الشَّامِ لغزو الْفِرِنْجِ، ومعه جيش كبير فوصلوا عسْقَلَانَ فقاتلوا من لقيهم وَتَفَرَّقُوا مُغِيرِينَ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّ الْفِرِنْجَ لَمْ يَظْهَرْ لَهُمْ عَسْكَرٌ انْبَسَطُوا، وَسَارُوا فِي الْأَرْضِ مُطَمَئِنِّينَ، وَوَصَلَ صَلَاحُ الدّين إِلَى الرَّمْلَةِ للغزو فَوَصَلَ إِلَى نَهْرٍ، فَازْدَحَمَ النَّاسُ لِلْعُبُورِ، فَلَمْ يَرْعَهُمْ إِلَّا وَالْفِرِنْجُ قَدْ أَشْرَفَتْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ مَعَ صَلَاحِ الدّين بَعْضُ الْعَسْكَرِ، لِأَنَّ أَكْثَرَهُمْ تَفَرَّقُوا فِي طَلَبِ الْغَنِيمَةِ، فَلَمَّا رَآهُمْ وَقَفَ لَهُمْ وَتَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ تَقِيُّ الدّين عُمَرُ ابْنُ أَخِي صَلَاحِ الدّين، فَبَاشَرَ الْقِتَالَ بِنَفْسِهِ بَيْنَ يَدَيْ عَمِّهِ، فَقُتِلَ مِنْ أَصْحَابِهِ جَمَاعَةٌ، وَكَذَلِكَ مِنَ الْفِرِنْجِ، وَكَانَ لِتَقِيِّ الدّين وَلَدٌ اسْمُهُ أَحْمَدُ، وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ الشَّبَابِ أَوَّلُ مَا تَكَامَلَتْ لِحْيَتُهُ فَأَمَرَهُ أَبُوهُ بِالْحَمْلَةِ عَلَيْهِمْ، فَحَمَلَ عَلَيْهِمْ وَقَاتَلَهُمْ وَعَادَ سَالِمًا قَدْ أَثَّرَ فِيهِمْ أَثَرًا كَثِيرًا، فَأَمَرَهُ بِالْعَوْدَةِ إِلَيْهِمْ ثَانِيَةً، فَحَمَلَ عَلَيْهِمْ فَقُتِلَ شَهِيدًا رحمه الله ثم تَمَّتِ الْهَزِيمَةُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَحَمَلَ بَعْضُ الْفِرِنْجِ عَلَى صَلَاحِ الدّين حَتَّى كَادَ يَصِلُ إِلَيْهِ، فَقُتِلَ الْفِرِنْجِيُّ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمَضَى صلاح الدّين مُنْهَزِمًا، يَسِيرُ قَلِيلًا وَيَقِفُ لِيَلْحَقَهُ الْعَسْكَرُ إِلَى أَنْ دَخَلَ اللَّيْلُ، فَسَلَكَ الْبَرِيَّةَ إِلَى أَنْ مَضَى فِي نَفَرٍ يَسِيرٍ إِلَى مِصْرَ، وَلَقَوْا فِي طَرِيقِهِمْ مَشَقَّةً شَدِيدَةً وَقَلَّ عَلَيْهِمُ الْقُوتُ ، وَهَلَكَ كَثِيرٌ مِنْ دَوَابِّ العسكر عطشا ووصل سالماً إلى مصر فكان كما قيل:

المجد عوفي إذ عُوفيت والكرمُ. وقد أخر الله مدّته لأمور يعلمها وليجعله نكالاً على الظالمين ثمّ يحرر القدس على يديه وينشر به العدل والخير.

قال ابن الأثير: (رَأَيْتُ كِتَابًا كَتَبَهُ صَــلَاحُ الدِّينِ بِخَطِّ يَدِهِ إِلَى أَخِيهِ شَــمْسِ الدَّوْلَةِ تُورَانْشَــاهْ ،يَذْكُرُ فيه الْوَقْعَةَ ومما قاله فيه: (لَقَدْ أَشْرَفْنَا عَلَى الْهَلَاكِ غَيْرَ مَرَّةٍ، وَمَا أَنْجَانَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْهُ إِلَّا لِأَمْرٍ يُرِيدُهُ سُبْحَانَهُ[٢٠])اهـ.

وفيها حاصَرَ الْفِرِنْجُ مَدِينَةَ حَمَاةَ، وَكَادُوا يَمْلِكُونَ الْبَلَدَ، ولكن رحلوا عنها بعد قتالٍ شديد وبلاء عظيم.

سنة أربع وسبعين وخمسمائة

فيعا أغارت الفرنج على بلدانٍ منها أعمال دمشــق، فســار لحربهم فرّخشــاه ابن أخي السلطان صلاح الدّين في ألف فارس فهزمهم.

وفيها سَارَ جَمْعٌ كَثِيرٌ مِنَ الْفِرِنْجِ بِالشَّامِ إِلَى مَدِينَةِ حَمَاةَ، وَشنوا الغارات وخَرَّبُوا الْقُرَى، وَأَسَرُوا، وَقَتَلُوا، فَلَمَّا سَــمِعَ الْعَسْــكَرُ الْمُقِيمُ بِحَمَاةَ بهم سَــارُوا إِلَيْهِمْ، فَالْتَقَوْا وَاقْتَتَلُوا فانتصر المسلمون وانْهَزَمَ الْفِرِنْجُ.

وفيها انْقَطَعَتِ الْأَمْطَارُ عن الْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ وَالْبِلَادِ الْعِرَاقِيَّةِ، وَالْمَوْصِلِ وغيرها، وَاشْتَدَّ الْغَلَاءُ في كثير من البلدان وَاسْتَسْقَى النَّاسُ ، فَلَمْ يُسْقَوْا، وقلَّت الْأَقْوَاتُ جداً وَأَكَلَتِ النَّاسُ الْمَيْتَةَ وَدَامَ كَذَلِكَ إِلَى آخرِ سَنَةِ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ثم وقع الفرَجَ.

سنة خمس وسبعين وخمسمائة

(٢٠)الكامل في التاريخ لابن الأثير: ٤٢٩/٩.

كَانَ الْفِرِنْجُ قَدْ بَنَوْا قبل ذلك حِصْنًا مَنِيعًا يُقَارِبُ بَانِيَاسَ فَلَمَّا سَمِعَ صَلَاحُ الدّين بِذَلِكَ سَارَ مِنْ دِمَشْقَ إِلَى بَانِيَاسَ، وَأَقَامَ بِهَا، وَبَثَّ الْغَارَاتِ عَلَى الْفِرِنْجِ، ثُمَّ سَارَ إِلَى الْحِصْنِ لِيُخَرِّبَهُ فلما دَخَلَتْ سَنَةُ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ لَمْ يُفَارِقْ بَانِيَاسَ بَلْ أَقَامَ بِهَا وَخَيْلُهُ تُغِيرُ عَلَى بِلَادِ الْعَدُوِّ.

وفيها كانت وقعةَ عند مرج العيون قَاتَلَ الْفِرِنْجُ المسلمين قِتَالًا شَدِيدًا ثم انتصر المسلمون بقيادة صلاح الدّين.

وَدَخَلَ الْمُسْلِمُونَ الْحِصْنَ المذكور سابقا بعد حصار وقتال وَأَطْلَقُوا مَنْ كَانَ بِهِ مَنْ أَسَارَى الْمُسْلِمِينَ.

وفيها توفي الخليفة العباسي الملقب بـ الْمُسْتَضِيءُ بِأَمْرِ اللهِ أَبُو مُحَمَّدٍ الْحَسَنُ بن يوسف الْمُسْتَنْجِدِ وأمّه أُمُّ وَلَدٍ أَرْمِنِيَّةٌ وَكَانَتْ خِلَافَتُهُ نَحْوَ تِسْعِ سِنِينَ وَسَبْعَةِ أَشْهُرٍ، وَكَانَ مَوْلِدُهُ سَنَةَ سِتٍّ وَثَلَاثِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ، وَكَانَ عَادِلًا حَسَنَ السِّيرَةِ فِي الرَّعِيَّةِ، كَثِيرَ الْبَذْلِ لِلْأَمْوَالِ، وَكَانَ النَّاسُ مَعَهُ فِي أَمْنٍ عَامٍّ وَإِحْسَانٍ شَامِلٍ، وَطُمَأْنِينَةٍ وَسُكُونٍ، لَمْ يَرَوْا مِثْلَهُ، وَكَانَ حَلِيمًا، قَلِيلَ الْمُعَاقَبَةِ عَلَى الذُّنُوبِ، مُحِبًّا لِلْعَفْوِ وَالصَّفْحِ عَنِ الْمُذْنِبِينَ. وأثنى عليه الأئمة كابن الجوزي وابن النجار وابن الأثير والذهبي وغيرهم.

سنة ست وسبعين وخمسمائة

فيها تُوُفِّيَ سَيْفُ الدِّينِ غَازِي بْنُ مَوْدُودِ بْنِ زَنْكِي، صَاحِبُ الْمَوْصِلِ وَعَمْرُهُ حِينَئِذٍ نَحْوُ ثَلَاثِينَ سَنَةً. وَكَانَتْ وِلَايَتُهُ عَشْرَ سِنِينَ وَثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ، وَكَانَ حَسَنَ الصُّورَةِ، وَكَانَ عَاقِلًا وَقُورًا، عَفِيفًا.

وفيها توجه صلا الدّين إلى الإسكندرية، وشاهد الأسوار التي جدّدها، وقال: نغتنم حياة الإمام أبي طاهر السِّلَفِي قال كاتبه فحضرنا عنده وسمِعنا عليه الموطّأ. قلتُ: وقد تقدم ذكر سماعه وحضوره لدروس ومجلس هذا الإمام شيخ المحدثين في سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة. وَفِيهَا تُوُفِّيَ هذا الْحَافِظُ واسمه: أَبُو طَاهِرٍ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ سِلَفَةَ بِالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ.

سَنَةُ سَبْعٍ وَسَبْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ

فيها سَارَ نَائِبُ صَلَاحِ الدّين بِدِمَشْقَ إِلَى أَعْمَالِ كَرَكٍ وَنَهَبَهَا. وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْبُرُنْس أَرْنَاطَ، صَاحِبَ الكَرَك [٢١] ، كَانَ مِنْ شَيَاطِينِ الْفِرِنْجِ ومن أَشَدِّهِمْ عَدَاوَةً لِلْمُسْلِمِينَ، فَتَجَهَّزَ، وَجَمَعَ عَسْكَرَهُ وَعَزَمَ عَلَى الْمَسِيرِ فِي الْبَرِّ إِلَى تَيْمَاءَ، وَمِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم لِلِاسْتِيلَاءِ عَلَى تِلْكَ النَّوَاحِي الشَّرِيفَةِ بزعمه فَسَمِعَ عِزُّ الدّين فَرخَشَاهْ ذَلِكَ، فَجَمَعَ الْعَسَاكِرَ الدِّمَشْقِيَّةَ وَسَارَ إِلَى بَلَدِهِ وَنَهَبَهُ وَخَرَّبَهُ، وَعَادَ إِلَى طَرَفِ بِلَادِهِمْ، وَأَقَامَ بِهَا لِيَمْنَعَ الْبُرُنْسَ مِنْ بِلَادِ الْإِسْلَامِ، فَامْتَنَعَ بِسَبَبِهِ مِنْ مَقْصِدِهِ وبطَلَ كيدُه.

سنة ثمان وسبعين وخمسمائة

فيها افتتح صلاحُ الدّين حرّان، وسنجار، ونصيبين، والرّقّة، وغيرها ثمّ رجع إلى حلب فتملّكها.

---

(٢١)تقدم التعريف بها.

وفيها بعث صلاح الدّين أخاه سيفَ الإسلام طغتكين على مملكة اليمن، وأمر بإخراج نوّاب أخيه شمس الدّين تورانشاه منها، وكان قد توفي قبل ذلك في سنة (٥٧٦ هـــ) وشمس الدّين هذا أكبر سنّاً من صلاح الدّين.

وفيها خرج صلاح الدّين من مصر غازيًا، وما تهيّأ له العود إليها لانشغاله بجهاد الصليبيين وبأعباء الدولة، هذا مع كونه قد عاش بعد ذلك اثنتي عشرة سنة.

سنة تسع وسبعين وخمس مئة

في أولها نازل صلاح الدّين مدينة حلب وحاصرها واقتتلوا وواليها اسمه: عِمَادُ الدِّينِ زَنْكِي ثم وقع التفاوض أن يسلم حَلَبَ إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ وَيَأْخُذَ عِوَضَهَا سِنْجَارَ، وَنَصِيبِينَ، وَالْخَابُورَ، وَالرَّقَّةَ، وَسَرُوجَ، وَجَرَتِ الْيَمِينُ عَلَى ذَلِكَ.

قال ابن الأثير: وَبَاعَهَا بِأَوْكَسِ الْأَثْمَانِ، أَعْطَى حِصْنًا مِثْلَ حَلَبَ، وَأَخَذَ عِوَضَهَا قُرًى وَمَزَارِعَ.

وفي ذلك يقول قَاضِيَ دِمَشْقَ محيي الدّين ابن المنتجب يمدح صلاح الدين بأبيات منها:

وَفَتْحُكُمْ حَلَبًا بِالسَّيْفِ فِي صَفَرٍ ... مُبَشِّرٌ بِفُتُوحِ الْقُدْسِ فِي رَجَبِ

فَوَافَقَ فَتْحُ الْقُدْسِ فِي رَجَبٍ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ - كما سيأتي -.

وهذا معدود في عجائب الموافقات وصادق التوقعات.

وَكَانَ فِي جُمْلَةِ مَنْ قُتِلَ عَلَى حَلَبَ تَاجُ الْمُلُوكِ بُورِيٌّ، أَخُو صَلَاحِ الدِّينِ الْأَصْغَرُ، وَكَانَ فَارِسًا شُجَاعًا، كَرِيمًا حَلِيمًا، فيه محاسن وخير، وقد طُعِنَ فِي رُكْبَتِهِ فَانْفَكَّتْ، فَمَاتَ مِنْهَا بَعْدَ أَنِ اسْتَقَرَّ الصُّلْحُ بَيْنَ عِمَادِ الدِّينِ وَصَلَاحِ الدِّينِ عَلَى تَسْلِيمِ حَلَبَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَهَا صَلَاحُ الدِّينِ، فَلَمَّا اسْتَقَرَّ أَمْرُ الصُّلْحِ حَضَرَ صَلَاحُ الدِّينِ عِنْدَ أَخِيهِ يَعُودُهُ، وَقَالَ لَهُ: هَذِهِ حَلَبُ قَدْ أَخَذْنَاهَا ، فَقَالَ:

ذَلِكَ لَوْ كَانَ وَأَنَا حَيٌّ، وَوَاللَّهِ لَقَدْ أَخَذْتَهَا غَالِيَةً حَيْثُ تَفْقِدُ مِثْلِي. فَبَكَى صَلَاحُ الدِّينِ وَأَبْكَى.

وهذا وغيره مما فقده صلاح الدّين من قرلباته الأدنين وإخولنه وأصحابه المقربين في معاركه وجهاده يدلّ على أنه لم ينل تلك المعالي إلا بفقد حبيبٍ وطولِ اجتهاد وركوب مشاقّ عظيمة وتعرض لمخاطر وصعاب كادت تذهب في بعضها مهجته، وهذا حال كثير من الفضلاء من القادة والسّلاطين وغيرهم.

وسأذكر ترجمة هذا القائد العظيم – فيما بعد بإذن الله – لما فيها من فوائد جليلة، ولعلاقته الأكيدة بالشّام.

وكان الفرنج قد صنعوا مراكب حربية شحنوها بالمقاتلة والأسلحة والأزواد، وضربوا بها سواحل اليمن والحجاز وكان المسلمون بمصر قد عَمَروا مراكبَ، وفرّقوها فرقتين فلحِقوا بهم وبطلت خطّة الفرنج.

وفيها غزا السلطان صلاح الدين مدناً أخرى وحصونا مثل بَيْسَانَ.

وفيها سار السلطان صلاح الدّين بجيوشه إلى الكَرَك فحاصرها، ثمّ جاءته الأخبار باجتماع الفرنج، فترك الكَرَك، وسار إليهم بعد أنْ كان أشرفَ على أخذها، فخالفوه في الطريق إلى الكَرَك، وأتوا إليها بجموعهم. فسار إلى نابلس، ثمّ عاد إلى دمشق.

وَاسْتَصْحَبَ صلاح الدين أَخَاهُ الْعَادِلَ أبا بكر إِلَى دِمَشْقَ، وَولاه مَدِينَةَ حَلَبَ وَقَلْعَتَهَا وَأَعْمَالَهَا وَمَدِينَةَ مَنْبِجَ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا، وَسَيَّرَهُ إِلَيْهَا فِي شَهْرِ رَمَضَانَ مِنَ السَّنَةِ.

والملك العادل أخو صلاح الدّين ولكنه عاش بعد صلاح الدين مدة طويلة فقد توفي العادل سنة (٦١٥هـ) و كان صلاح الدين قد اسْتَخْلَفَهُ بِمِصْرَ ثِقَةً بِعقله وحسن تدبيره، وكان ذَا رَأْيٍ سَدِيدٍ، فيه دهاء وسياسة. و له أخبار عجيبة طويلة.

هو الذي سيتولى ملك ديار مصر وغيرها بعد أمور طويلة جرت بعد وفاة صلاح الدين من اختلاف أبناء السلطان صلاح الدين وغير ذلك.

وقد انتقل حكم الدّولة الأيوبية من أبناء صلاح الدّين إلى أبناء العادل هذا.

نهاية الجزء الثاني.